جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

أثر المعنى الأم في تنوع الخطاب في سورة الجمعة

إعداد

د. أبو الفتوح عبد الوهاب الرفاعي غياتي
مدرس، قسم البلاغة والنقد ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر، إيتاي البارود، جمهورية مصر العربية.

(العدد الثالث والأربعون)
(الإصدار الأول-فبراير)
(الجزء الرابع (١٤٤٥هـ /٢٠٢٤م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) 2536- 9083
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٢٤/٦٢٧١م

أثر المعنى الأم في تنوع الخطاب في سورة الجمعة

أبو الفتوح عبد الوهاب الرفاعي غياتي

قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، إيتاي البارود، جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني: *fetoohgeaty2034@azhar.edu.eg.*

الملخص:

تقوم فكرة هذه الدراسة البلاغية على إدراك المعنى الأم والمقصد الرئيس في سورة الجمعة، من خلال أسس معينة لا تخرج عن إطار السورة الكريمة، كدلالة المطلع والمقطع، واسم السورة وسياقه، والنظر في خصائص القرآن المدني؛ لأن السورة مدنية بإجماع الأئمة، وهو ما ارتضاه البحث في استنباط المقصد من واقع النظم وخصائص الخطاب. ثم بيان أثر هذا المعنى على النظم الكريم، وكيف تنوعت خصائص التعبير خدمة لهذا المعنى والسير في ركابه، وصولا إلى الغاية التي قررتها السورة الكريمة. وقد ظهر أن مقصد السورة الرئيس هو تزكية النفس وتطهيرها من آفات الدونية والانحطاط، وتبعا لذلك استهلت بمقدمة مقررة لمعنى التنزيه لله تعالى، وصرح فيها بهذه التزكية، ثم انقسمت السورة إلى جانبين: جانب فيه تسفل وسقوط وهو ما يخص اليهود، وجانب فيه علو وترقٍ وهو ما يختص بالمؤمنين، وسلك الخطاب مع كل فريق مسلكا خاصا يتناسب مع موقفه من تلك التزكية.

الكلمات المفتاحية : المعنى، الأم، المقصد، الخطاب، الجمعة، التسفل، الترقي.

The impact of the mother meaning on the diversity of discourse in Surah Al-Jumu'ah

Abu Al-Futuh Abdul Wahab Al-Rifai Ghiyati
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language, Al-Azhar University, Itay El Baroud, Arab Republic of Egypt

Email: *fetoohgeaty2034@azhar.edu.eg*

Abstract:
The idea of this rhetorical study is based on understanding the main meaning and purpose in Surah Al-Jumu'ah, through specific principles that do not go beyond the framework of the noble Surah, such as the indication of the introduction and the section, the name of the Surah and its context, and considering the characteristics of the Medinan Quran, because the Surah is Medinan by consensus of the Imams, which the research has accepted in deriving the purpose from the reality of the structure and characteristics of the discourse. Then, explaining the impact of this meaning on the noble structure, and how the characteristics of expression have diversified in service of this meaning and following in its footsteps, reaching the goal set by the noble Surah. It has been revealed that the main purpose of the Surah is to purify the soul and cleanse it from the flaws of materialism and decadence, and accordingly, it began with an established introduction to the meaning of exaltation of Allah Almighty, and declared this purification, then the Surah was divided into two parts: a part involving degradation and downfall, which pertains to the Jews, and a part involving elevation and advancement, which pertains to the believers. The discourse follows a specific path with each group that corresponds to their position in that purification.

Keywords: *Meaning - Mother - Purpose - Discourse - Al-Jumu'ah- Degradation - Advancement.*

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ لله رب العالمين، الملكِ القدوسِ العزيز الحكيمِ، والصلاةُ والسلام على سيدنا محمدٍ النبي الأمي المبعوث رحمة للعالمين، وعلى أبويه إبراهيمَ وإسماعيلَ، وعلى جميعِ الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين... أما بعد،،

فإن القرآن الكريم هو بحر البلاغة ومدادها، وعنوانُ الفصاحة وسراجها، لا تنتهي عجائبه، ولا تحد شطآنه، بهر أرباب الفصاحة والبيان؛ بما حواه من بلاغة معجزة، وفصاحة قاهرة قاطعة.. فمهما استخرج العلماء منه اللآلئ والدرر، وغاصوا على ما فيه من المعاني والفِكَر؛ فلن يبلغوا شأوه، ولن يدركوا غايته؛ وذاك أنهم يأخذون منه ما شاء الله لهم أن يأخذوا، ويُفتح لهم من أبوابه ما يُفتح بقدر إخلاصهم وبِرّهم بكلام ربهم. ثم يفيض التبيان بمعانٍ تجلُّ عن الوصف، ومزايا لا يدركها الخلق، بل تقصر قوى نظرهم عنها، وتنقطع أطماعُهم دونها؛ لأنه كلامه تعالى وصفة ذاته عزت صفاته، فكما أن صفاتَه تعالى لا تتناهى؛ فكذلك كلامه جل وتقدس لا نهاية لعطائه، ولا غاية لسخائه.. ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان:٢٧].

ولهذا كان سهل بن عبد الله يقول: " لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه؛ لأنه كلامه القديم، وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يَفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه "[1].

---

(١) ينظر: تفسير التستري، للإمام سهل بن عبد الله التستري، ت: محمد باسل عيون السود، نشر: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى،١٤٢٣هـ(ص٩٨)، والبرهان في علوم القرآن، للزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبي، ط: الأولى، ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م(١/٩).

ومن مظاهر إعجاز القرآن الكريم: حسنُ تأليفه وترابطُ أجزائه، وتناسبُ سوره وآياته، ومطالعه ومقاصده، وأوائله وأواخره؛ فلكل سورة مقصد ترمي إليه، وتسعى آياتها للدلالة عليه، فتتآزر الآيات وتتناسب، وتتكامل للإبانة عن هذا المقصد وتتعاضد.

وعنايةُ علماء التفسير وعلوم القرآن بمقاصد السور آيةُ ذلك؛ فقد عُنوا ـ رحمهم الله ـ برصد المقاصد والوقوف على الأغراض الأساسية وأمهات المعاني، وبذلوا في هذا السبيل جهدا كبيرا لبيانه والدلالة عليه من خلال تعاضد المطالع والمقاطع والمعاقد، مع المقاصد الكلية للسور القرآنية، وهذا لائح عند الرازي، والبقاعي، والزركشي، والسيوطي، وسيد قطب، والطاهر بن عاشور، ودراز.. ومن لف لفهم.

وهذه العناية تلفت إلى ضرورة الوقوف على مقاصدِ المعاني وأمهاتِها في سور القرآن الكريم سورة سورة، وبيان الوشائج والصلات بين هذه المقاصد ونسيج السورة العام، وآثار ذلك على نظم السورة وحركة المعنى(١).

(١) من الدراسات الحديثة التي عنيت بذلك: رسالة الأستاذ الدكتور: إبراهيم الهدهد " علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم"، طبق فيها شيخُنا على سور عدّة من الذكر الحكيم، مُجلِّيا ما اشتملت عليه من علائق الأنساب، مبينا أن لكل سورة سياقا يقتضي أسلوبا لا يلتبس بأسلوب يجري في سياق آخر، وتأتي التراكيب جارية على مقتضى هذه السياقات، كاشفا عن الروابط بين مطالع السور ومقاصدها، وأن السورة القرآنية هي تسوير لمقصد واحد شاطئاه المطلع والخاتمة، وينتقل بينهما المقصد الذي تتظاهر السورة على بيانه. وهي دراسة مهمة وأصيلة في بابها.[تراجع الورقات من ٣ : ١٢، على سبيل المثال، مكتبة وهبة ط: الثانية، ١٤٤٠هـ- ٢٠١٩م].

وكنتُ كتبتُ بحثا سميته:" خصائص النظم القرآني في سورة الجمعة[١]، تناولها بالتحليل البلاغي العام، لا من طريق المعنى الأم وتأسيس المعاني عليه وتنوع الخطاب تبعا له، وقد أفدت منه في دراستي هذه.

ومن الدراسات التي تتصل بهذه السورة من الجانب البلاغي: بحث عنوانه: النظم القرآني في سورة الجمعة[٢]، وهو قائم على التحليل البلاغي العام لآيات السورة أيضا.

وبحث آخر بعنوان: من بلاغة الحجاج في سورة الجمعة[٣]، بُني على التأصيل لأسلوب الحجاج لدى القدماء والمحدثين والغربيين، مطبقا على بعض آيات السورة المشتملة على آليات بلاغية كالتمثيل، والمجاز، والكناية، والطباق، مقررا حجاجية تلك الأساليب، مبينا دور آليات اللغة، كالتوكيد والشرط والخبر والإنشاء، ونحوها في الاحتجاج للمعنى.

ومن الناحية التفسيرية: هناك رسالة علمية تحت عنوان: سورة الجمعة دراسة تحليلية موضوعية[٤]، وهي دراسة مختصرة تناولت أسباب النزول، ومناسبة السورة لما قبلها وما بعدها، وتفسير موضوعاتها، والقراءات القرآنية فيها، والأحكام المتعلقة بصلاة الجمعة.

---

(١) نشر بمجلة مركز الخدمة للاستشارات البحثية، كلية الآداب بالمنوفية، تحت رقم إيداع(١٨٥٩١) لسنة ٢٠١٢م.

(٢) منشور بمجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، للدكتور: عبد الحافظ إبراهيم البقري، العدد السادس، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

(٣) منشور بمجلة العلوم العربية بجامعة محمد بن سعود الإسلامية، للدكتورة: الشيماء محمد الفرهود، مج(١)، ع(٦٨) ١٤٤٥هـ- ٢٠٢٤م.

(٤) رسالة ماجستير للباحث: عبد الله محمد يحيى غيلان، كلية العلوم الإسلامية، جامعة المدينة العالمية، ماليزيا، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.

وبحث عُنون بـ: سورة الجمعة دراسة تفسيرية تحليلية[١]، ركز على الأحكام المتعلقة بالسورة لغويا وفقهيا، ولم يقف على الدلالات البلاغية إلا بقدر يسير مما يخدم الجانب التفسيري، وهو على هذا يلتقي بالرسالة سالفة الذكر.

وثم بحث آخر بعنوان: وحدة النسق في سورة الجمعة[٢]، تأسس على بيان العلاقة والمناسبة بين موضوعات السورة ومقاطعها الثلاثة، التي تبدوا مختلفة في أول الأمر، وقد وَفَّق بينها جميعا وأظهر علاقتها بعنوان السورة، وهو على ذلك يعد قراءة عامة لم تقف على خصائص البلاغة والبيان.

وبذا تظهر المفارقة بين هذه الموضوعات وموضوع بحثي، من حيث المنهجية والمعالجة من ضبط المعنى الأم والتفاف السورة حوله وتآزر الخصائص البلاغية للدلالة عليه.

وقد بزغت فكرة هذا البحث المسمى: " أثرُ المعنَى الأُمِّ في تنوعِ الخطاب في سورة الجُمعة " كمحاولة لبيان المعنى الأم والمقصد الرئيس في سورة الجمعة، من خلال أسس معينة لا تخرج عن إطار السورة الكريمة، كدلالة المطلع والمقطع أو الخاتمة، واسم السورة وسياقه، وخصائص القرآن المدني؛ لمدنية السورة، ثم بيان أثر هذا المعنى على صياغتها النظمية وبنيتها التركيبية، وكيف سارت السورة من بدايتها إلى نهايتها مع مقصودها الأعظم الذي هو تزكية النفس وسموها عن آفات الدونية والانحطاط؟ وكيف تنوعت خصائص التعبير خدمة لهذا المعنى والسير في ركابه، وصولا إلى الغاية التي قررتها السورة الكريمة؟

---

(١) بحث منشور بمجلة الزهراء بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بكفر الشيخ، للدكتورة: رشا بسيوني يوسف الدسوقي، مج(٢٧)، ع(٢٧)، ١٤٣٩هـ- ٢٠١٧م.

(٢) بحث منشور بمجلة رابطة العلماء السوريين، سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، لمحمد الجمل، ومحمد الحوري، قسم أصول الدين بكلية الشريعة، جامعة اليرموك، الأردن، ٢٠١١م.

وفي ضوء هذا الغرض اصطفى البحث المنهج الوصفي، القائم على بيان المعنى الأم والأسس الدالة عليه، وخصائص الخطاب المفصحة عنه، ثم تحليل هذه الخصائص ومدى صلتها بهذا المعنى.

وتبعا لذلك انقسم البحث إلى مقدمة تُظهر أهميةَ الموضوع ومنهجَه، والدراساتِ السابقة، وتمهيد: يُعنى بضبط المصطلح وتحريره، وكيفية معرفة المعنى الأم، وثلاثة مباحث: الأول بعنوان: المعنى الأمُّ ومستلزماتُه في سورة الجمعة، والثاني عنوانه: أثرُ المعنى الأمِّ في خطاب التسفل والسقوط، والثالث: أثرُ المعنى الأمِّ في خطاب الترقي والسمو، والخاتمة: وفيها أبرز نتائج البحث، ثم: ثبت للمصادر والمراجع، وفهرس للموضوعات.

وأخيرا، فإني أضرع إلى الله تعالى أن ينفع بهذا العمل وأن يغفر ما فيه من الزلل، وأن يجعله زخرا لي ولوالدي ولمشايخي..﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[الشعراء: ٨٨، ٨٩]، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه: أبو الفتوح عبد الوهاب غياتي

طنطا في: ٢٣ من شهر رجب ١٤٤٥هـ

الموافق ٣ من فبراير ٢٠٢٤م

التمهيـــد

أولا: ضبطُ المصطلحِ وتحريرُه

المعنى الأم: مركبٌ وصفيٌ يدل على المقصدِ الأساس والغرض الرئيسِ، فتركب من موصوف هو المعنى، وصفة هي الأم.

والمعنى في اللغة، يدور على القصد والعناية والاهتمام، قال الأزهري: عَنَيت فلانا عَنْياً أَي قصدته وَمن تَعْنِي بِقَوْلِك؟ أَي من تقصد؟ وعناني أَمرُك أَي قصدني... وتَقول: هَذَا الأَمر لا يعنيني أَي لا يَشغلني. وَقيل: يَعْنِيك أَي يقصدك. وعَن الأَصْمَعِي: عُني فلان بِالأَمر فَهُوَ مَعْنِيّ بِهِ. ويُقَال: لتُعْنَ بحاجتي. وَعَنْ أَحمد بْنِ يَحْيَى قَالَ: المَعْنَى والتفسيرُ والتَّأْوِيل واحدٌ(١).

وهو في المقاييس: الْقَصْدُ لِلشَّيْءِ بِانْكِمَاشٍ فِيهِ وَحِرْصٍ عَلَيْهِ، ومِنْهُ عُنِيتُ بِالأَمْرِ وَبِالْحَاجَةِ. قَالَ ابْنُ الأَعْرَابِيِّ: عَنِيَ بِحَاجَتِي وَعُنِيَ. قَالَ الأَصْمَعِيُّ: لا يُقَالُ عَنِيَ(٢).

وفي اللسان: عَناهُ الأَمرُ يَعْنِيه عِنَايةً وعُنِيّاً: أَهَمَّه. واعْتَنَى هُوَ بأَمره: اهْتَمَّ. وعُنِيَ بالأَمر عِنَايَةً.

وَقَالَ بَعْضُ أَهل اللُّغَةِ: لا يُقَالُ عُنِيتُ بِحَاجَتِكَ إِلا عَلَى مَعْنى قصَدْتُها، مِنْ قَوْلِكَ عَنَيْتُ الشَّيْءَ أَعْنِيه إِذا كُنْتَ قاصِداً لَهُ، فأَمَّا مِنَ العَنَاء، وَهُوَ العِنَايَةُ، فَبِالْفَتْحِ نحوُ عَنَيتُ بِكَذَا وعَنَيت فِي كَذَا، وأَجاز ابْنُ الأَعرابي عَنِيتُ بِالشَّيْءِ أَعْنَى بِهِ، فأَنا عانٍ.

---

(١) تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، ت: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولى، ٢٠٠١م(مادة: عنا).

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م(مادة: عنى).

وعَنَيْتُ بِالْقَوْلِ كَذَا: أَردت. ومَعْنَى كُلِّ كلامٍ ومَعْنَاتُه ومَعْنِيَّتُه: مَقْصِدُه، وَالاسْمُ العَنَاء[1].

وعلى ذلك، فالمعنى هو المقصد والمراد، وما يقتضيه من العناية والاجتهاد.

والأم في اللغة: الأصلُ والعماد، قال الخليل: اعلم أنّ كلّ شيء يُضمُّ إليه سائر ما يليه فإن العرب تُسمِّي ذلك الشَّيْء أُمّاً.. فمن ذلك: أمُّ الرأس وهو: الدّماغ، وأمّ القرى: مكة – شرَّفها اللَّهُ تَعَالَى – لأَنها توسطَت الأَرض فِيمَا زَعَموا، أو لأَنها قِبْلةُ جَمِيعِ النَّاسِ يؤُمُّونها، أو لأَنها أَعظمُ القُرَى شأْناً، وكلّ مدينةٍ هي أُمُّ ما حولَها من القُرَى. وأمّ القرآن: كلّ آية مُحْكَمة من آيات الشّرائع والفرائض والأحكام. والفاتحة؛ لأنّها هي المتقدّمة أمامَ كلّ سُورةٍ في جميع الصّلوات، وابتدئ بها في المصحف فقدمت، وهي القرآن العظيم. وأُمّ الرُّمْح: لواؤُه وَمَا لُفّ عَلَيْهِ. والأُمُّ لِكُلِّ شَيْءٍ هو المَجْمَع والمَضَمُّ[2].

فالأم دائر على معنى أصلِ الشيء وأساسِه وأعظمِ ما فيه.

وعليه فالمراد بالمعنى الأم: مقصودُ الحديثِ الأعظمُ، والغرضُ الأساسُ الذي انعقد عليه الكلام.

والمعنى الأمُّ في سورة الجمعة: هو المقصد الرئيسُ الذي بنيت عليه السورة، وتظاهرت آياتها على بيانه، وأتلفت خصائصُ النظم للدلالة عليه، على ما سنذكره في موضعه إن شاء الله تعالى.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط: الثالثة، ١٤١٤هـ(مادة: عنا).

(٢) ينظر: كتاب العين، للخليل بن أحمد، ت: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال(مادة: أمم)، وتهذيب اللغة(مادة: أمّ)، ولسان العرب(مادة: أمم).

ومقاصدُ المعاني وأمهاتُها بابٌ دقيق من أبواب الدرس البلاغي، نبه إليه العلماء قديما وحديثا؛ بل إن أوائل الشعراء بنوا قصائدهم على تلك المعاني الأمهات، ومن يستبطن شعرهم ويتدسس فيه يرى ذلك رأي العين.. وما قصائدهم منا ببعيد!

وهذا ما أبان عنه حازم القرطاجني – وكان بصيرا بلغة الشعر – إذ يقول:" إن الناظم حقيقٌ عليه إذا قصد الروية أن يُحضر مقصدَه في خياله وذهنه، والمعاني التي هي عُمدة له بالنسبة إلى غرضه ومقصده، ويتخيلها تتبعا بالفكر في عبارات بددٍ، ثم يلحظ ما وقع في جميع تلك العبارات أو أكثرها، طرفا أو مهيأ لأن يصير طرفًا، من الكلم المتماثلة المقاطع الصالحة لأن تقع في بناء قافية واحدة "[١].

فتراه يصرح بـ(المعاني التي هي عمدة)، يعني أمهاتِ المعاني، وهو ما يدلنا على أن للشاعر مقصودا رئيسا ومعنى أمًّا يَنسُج قصيدتَه عليه، ويُدير أبياتَها حوله.

وهذا يقودنا إلى ما ذكره شيخ العربية حين قال . عن قصيدة " إن بالشِّعْب الذي دون سَلْعٍ " . : إنها معقودة على تذكر شيء مضى، حدَّث به الشاعرُ نفسه فتغنى وترنم"[٢]. وهي دلالة ظاهرة على أصول المعاني التي يقوم عليها الشعر.

وكان ممن أغرى بهذا الباب، الشيخ أبو موسى، فقد طرق عليه كثيرا في كلامه المسطور والمسموع، فمن ذلك ما ذكره، تعليقا على نص أبي القاسم المشدالي في المناسبة القرآنية، من النظر أوّلا في الغرض واستكشافه وتحديده، ثم النظر في المقدمات، يعني معرفة منازل المعاني ومراتبها في ضوء معرفة الغرض الذي انعقد

---

(١) ينظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، ت محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط: الثالثة، ١٩٨٦م(ص٢٠٤).

(٢) نمطٌ صعب ونمطٌ مخيف، محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، مطبعة المدني بمصر، ط: الأولى، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م(ص١٤٣).

عليه الكلام، وهو ما علَّمَنَا إياهُ الإمام عبد القاهر حين قال، تعقيبا على قول ذي الرُّمَّة: (من الوافر)

ولَمْ أَمدَحْ لأرضيهِ بِشعري ... لَئِيمًا، أَنْ يكونَ أصابَ مالا[1]

أعْمَلَ " لم أمدحْ "، الذي هو الأول، في صريح لفظ " اللئيم "، و" أرْضَى "، الذي هو الثاني، في ضميرِه؛ وذلك لأنَّ إيقاعَ نفي المدح على اللئيم صريحا، والمجيءَ به مكشوفًا ظاهرا، هو الواجبُ من حيثُ كان أصْلُ الغرضِ، وكان الإرضاءُ تعليلاً له[2].

فنبه الإمام إلى أصل المعنى وما يتوصل به إليه، وفرق بين أصل الغرض، وبين ما يذكر ليبني عليه الغرض ويؤكَّدَ به أمره[3].

وأعود لأكمل كلام الشيخ أبي موسى، يقول: ثم النظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المقصود، يعني العلاقة بين المقدمة والمطلوب، ولابد أن تكون المقدمات موشاةً بتوشية تشير إلى المطلوب. ثم النظر في حركة الكلام وما تثيره في النفس من معان وظلال وأحوال لها تعلق بالغرض والمقصود[4].

والقرآن الكريم إنما نزل بلغة العرب وطرائقهم في البيان، فلا جرم قامت سورة على أمهات من المعاني تُعقد عليها أوائلها وأواخرها، فيكون المقصد محورا تدور السورة حوله، وتلتف آياتها عليه.

---

(١) ديوان ذي الرمة، شرح أبي نصر الباهلي، ت: عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان جدة، ط: الأولى، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م (٣/١٥٣٤).

(٢) دلائل الإعجاز، الإمام عبد القاهر الجرجاني، ت: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة، ط: ثالثة ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م (ص١٧٠).

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز(ص١٦٨).

(٤) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات القرآنية، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط: الثانية، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م(ص١٤، ١٥).

وظهرت عناية المفسرين وعلماء المناسبة القرآنية بهذا الباب – كما سلفت الإشارة – حتى إن البقاعي قد أفرد له مصنفا سماه: " مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور"، وعُني به أيضا في كتابه الكبير: " نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"؛ والسيوطي في " مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع "، و" أسرار ترتيب القرآن " أو " تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور" – وهما مختصران– ؛ والمَجْد في " بصائر ذوي التمييز"، والطاهر في " التحرير والتنوير"، ودراز في" النبأ العظيم"، وغيرهم رحمهم الله تعالى.

ويذكر الشيخ أبو موسى ما لدراسة هذا الباب من الأهمية في فقه البيان القرآني، وبيان المبين؛ شاعرا أو غير شاعر، فيقول: " وليس فينا من يشك في أن معرفة المعنى الأم الذي تدور حوله السورة هو من أهم ما يجب أن يُعرف؛ لأنه يتأسس عليه معنى هو جوهر التفسير، وهو معرفة كيف تفرعت هذه المعاني الجزئية المكونة للسورة من هذا المعنى الأم، وكيف ترتبت عليه، وكيف ترتب بعضها على بعض؟ ثم إن هذا ليس جوهر التفسير فحسب، وإنما هو جوهر تحليل كل بيان صقله صاحبه، شعرا كان أو نثرا أو ما شئت "[١].

وقد بيَّنتُ في بحثي: " أنساب المعاني " أن أئمة الحديث بما حباهم الله من حسن البصيرة، قد أدركوا المعاني الكلية والجزئية، واستنبطوا من السنة المطهرة على سَعَتها وامتدادها، أصولا وأسساً يقوم عليها الإسلامُ، وأمهاتٍ تدورُ عليها الأحكامُ، وقواعدَ تحمل هذا الأصل الكبير وتستوعب فروعه، ونصوا على أحاديثَ سمّوها : أمهات الإسلام، أو أصول السنن، أو عمدة الدين...إلخ، وما ذاك إلا لما رأوا من شمولها

---

(١) آل حم غافر . فصلت دراسة في أسرار البيان، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط: الأولى، ١٤٠٩هـ- ٢٠٠٩م(ص١٣).

لكثير من أحكام الدين وقواعده الكلية[1]، فكانت محل عنايتهم ومحط نظرهم، ومن ثم عُنوا بأمهات المعاني في الحديث الشريف.

وعلى هذا السمت نحا علماءُ الفقه وأصولِهِ، فأخرجوا لنا علما جليلا، هو علم مقاصد الشريعة، استمدوا ذلك من أصول السنة المطهرة وأحاديثها الجامعة، فاستخرجوا منها القواعد الكلية، أو القواعد الفقهية الكبرى، واجتهدوا في تخريج الفروع على الأصول، بما يعد فقها عظيما في أصول الشريعة، وفي أصول البيان.

ثانيا: كيفية معرفة المعنى الأم

لإدراك المعنى الأم في السورة الكريمة، تجدر الإشارة أولا إلى أن كل سورة من سور القرآن كالدوحة ذات الأفنان، والشجرة ذات الأغصان؛ لها أصل ثابت قائم بأفنانها، تنشعب عنه تلك الأغصان، وتتداخل فيما بينها وتتفرع على هذا العماد.

فالسورة القرآنية لها مقصد أساس، وهدف رئيس، تدور المعاني عليه، وتنتظم الأساليب بين يديه؛ وهو ما يعرف بعمود السورة، وأُمِّ المعنى، وإن تعددت المقاصد فيها؛ فإنما تتفرعُ من هذا الأصل وتعودُ إليه، وتتشابكُ معه.

وأبلَغُ مما ذكرتُ وأدخَلُ في الدلالة على المقصود وأظهر؛ ما ذكره البرهان البقاعي في مصاعد النظر؛ من أن كل سورة لها مقصد واحد يُدار عليه أولها وآخرها، ويُستدل عليه فيها، فتُرتب المقدمات الدالة عليه على أتقن وجه، وأبدع نهج، وإذا كان فيها شيء يحتاج إلى دليل، استدل عليه، وهكذا في دليل الدليل، وهلم جرا. فإذا وصل الأمر إلى غايته، ختم بما منه كان ابتدأ، ثم انعطف الكلام إليه وعاد النظر عليه، على نهج آخرَ بديع، ومرقى غير الأول منيع، فتكون السورة كالشجرة النضيرة

---

(١) ينظر: أنساب المعاني وفقه روابطها في الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، د. أبو الفتوح عبد الوهاب غياتي، منشور بمجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية،(العدد ٣٧) ديسمبر٢٠٢٢م (ص١٩٢). وتنظر أقوال الأئمة (ص ٢٠٠- ٢٠٦).

العالية، والدوحة البهيجة الأنيقة الخالية[١]، المزينة بأنواع الزينة المنظومةِ بعد أنيق الورق بأفنان الدرّ، وأفنانُها منعطفة إلى تلك المقاطع كالدوائر، وكل دائرة منها لها شعبة متصلة بما قبلها، وشعبة ملتحمة بما بعدها، وآخر السورة قد واصل أولها، كما لاحم انتهاؤها ما بعدها، وعانق ابتداؤها ما قبلها، فصارت كل سورة دائرةً كبرى، مشتملةً على دوائر الآيات الغُرِّ، البديعة النظم، العجيبة الضم، بلين تعاطف أفنانها، وحسن تواصل ثمارها وأغصانها "[٢].

وفي هذا، الدليلُ على تعانق النظم وتلاحم البناء؛ وفاءً بالمقصد وخدمة للغاية التي تسعى السورة لكشفها والبيان عنها بأسلوب معجز.

ثم إنه – رحمه الله – ذكر في " نظم الدرر" أنه جعل من اسم السورة إضاءةً له في طريق الوصول إلى مقصودها، إذ يقول: " وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة[٣] بعد وصولي إلى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب؛ أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها؛ لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه، عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه "[٤].

---

(١) الخالية: الرَّطبة، والخَلَى: الرَّطْبُ من النبات.[ينظر: العين(مادة: كلأ) واللسان(مادة: خلا)].

(٢) مَصَاعد النَّظر للإشراف على مقاصد السور، للإمام إبراهيم بن عمر البقاعي، مكتبة المعارف، الرياض، ط: الأولى ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٧م(١/١٤٩).

(٣) يعني القاعدة التي أخذها عن شيخه العلامة محمد بن أبي القاسم المشدالي المغربي، وهي: " الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن؛ هو أنك تنظرُ الغرضَ الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء العليل يدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها؛ فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن". [نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة(١/١٧، ١٨)].

(٤) نظم الدرر(١/١٨، ١٩).

وهذا وجه من وجوه الدلالة على هذا المقصود؛ لأن كل سورة من السور فيها دلائلُ متنوعة، ووجوه متعددة، تُبِين عن مقصدها، وهذا المقصد يستلزم خصوصيات في المعاني، وخصوصيات في الأساليب؛ وهي لا تنكشف إلا بشحذ البصيرة، وتقليب الفكر، وإعمال الرَّوية.

وعلى ذلك يستنبط المقصدُ والمعنى الأمُّ في سورة الجمعة باستنطاق المطلعِ والمقطعِ؛ لأنهما يمثلان المقدمة والخاتمة، وهما من أظهر الدلائل الكاشفة عن المقصد، واسمِ السورة، وهو عنوانها الناطقُ بغرضها، مع مصاحبة السياق الذي ورد فيه ذكر هذا الاسم؛ لما للسياق من الأهمية البالغة في بلوغ المراد وإدراك المقصود، كما يحسن النظر إلى خصائص القرآن المكي والمدني؛ فإنه مما يعين في إدراك مقاصد السور، وإن كانت الأسس السابقة كافية في معرفة ذلك، وهو ما أرتضيه في طريق استنباط المقصد من واقع النظم وعناصر البيان في السورة بمعونة تلك الأسس، دون اللجأ إلى وسائل خارجية.

وسورة الجمعة – التي هي محل البحث – مدنية بإجماع الأئمة[1]، ومن خواص القرآن المدني أنه يُعني " بدقائق التشريع وتفاصيل الأحكام، والحقوق الشخصية، وسائر ضروب العبادات والمعاملات.. كما يحفِل بدعوة أهل الكتاب إلى الإسلام،

---

(١) قال العلماء: هذه السورة مدنية، وقيل مكية وهو خطأ؛ لأن أمرَ اليهودِ وانفضاضَ الناس في الجمعة لم يكن إلا بالمدينة. فالصحيح أنها مدنية، وهذا مروي عن جمع من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، وإليه ذهب الجمهور.[ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى،١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م(٥/ ٣٠٦)، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر، ط:١٤٢٠هـ(١٠/١٧١)، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت(٢٨/ ٩٢)].

ومناقشتهم في عقائدهم الباطلة، وبيان جناياتهم على الحق، وتحريفهم لكتب الله، ومحاكمتهم إلى العقل والتاريخ "[١].

وقد اشتملت السورة على ذلك، محددةً للطريق ومبينةً للمنهج الذي ينبغي أن تسير عليه النفس، فإذا هي سارت على طريق الشرع، وامتثلت منهج الله تعالى سمت وزكت؛ وإن هي انحرفت عنه وحادت سفلت وتدنت، كما هو شأن اليهود وغيرهم من أهل الكفر والضلال، وهو ما يتناسب مع مقصود السورة الأعظم الذي هو تزكية النفس، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

(١) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط: الثالثة(١/٢٠٤). وينظر في معرفة بعض ضوابط القرآن المدني: البرهان في علوم القرآن(١/١٨٨، ١٨٩)، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م(١/ ٦٨، ٦٩).

المبحث الأول

المعنى الأمُّ ومستلزماتُه في سورة الجمعة

قامت السورة الكريمة على معنى أُمٍّ، ومقصد رئيس، اشتجرت خصائص النظم للدلالة عليه، وتكاتفت أساليبها للإبانة عنه؛ وهو: تزكيةُ النفس وتطهيرُها من آفات الدونية والانحطاط، وإقامتها على المنهج الذي يسمو بها عن الجواذب التي تنزل بها إلى أسفل الدركات.

وقد نص البقاعي على مقصدها تبعا لمنهجه – السالفِ البيان – في استنباط المقصد، ذكرا هذه التزكيةَ فيما ذكر، إلا أنه وسَّع في بيانه نوعا ما؛ فجعل مقصودَها: " بيان مسمى الصف، بدليل هو أوضح شرائع الدين وأوثق عرى الإسلام، وهو الجمعة التي اسمها مبين للمراد منها، من فرضية الاجتماع فيها، وإيجاب الإقبال عليها والتجرد عن غيرها والانقطاع، لما وقع من التفرق حال الخطبة عمن بُعث للتزكية، بالاجتماع عليه في الجهاد وغيره، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، واسمها الجمعة أنسب شيء فيها لهذا المقصد، بتدبر آياته، وتأمل أوائله وغاياته، الحاثة على قوة التواصل والاجتماع، والحاملة على دوام الإقبال على المزكي والحب له والاتباع "[1].

فجعل الجمُعةَ قائمةً على بيان مقصود الصف، من الاجتماع والتجرد والانقطاع، وقوة التواصل الحاملة على دوام الإقبال على المزكي، وهو لا جرم يُعقل من اسم السورة، فدار بيانه للمقصد عليه، كما نبه هو في منهجه.

وما ذكره حقيق بالنظر والاعتبار؛ فإن تسبيح كل ما في السموات وما في الأرض من ناطق وصامت، لآية مفصحة باجتماعهم واحتشادهم على تنزيه الله تعالى

---

(١) مصاعد النظر(٣/٨٣، ٨٤)، ونظم الدرر(٢٠/٤٤).

وتعظيمه، وهو ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون من دوام الإقبال على الله تعالى ورسوله ﷺ؛ ذكرا وتسبيحا وتعظيما وعبادة، واتباعا واقتداءً .. ولا سيما في يوم الجمعة، بالسعي إليها، والاجتماع عليها، وعدم التفرق عنها، لخصوصية الجماعة فيها، إذ لا تصح بدونها.

على أن ما ذهب إليه الشيخُ مع جدارته وصحته، لا يعدو أن يكون سببا للمقصود الأعظم للسورة وهو التزكية؛ فإن الاجتماعَ والتجرد والانقطاع ودوامَ الإقبال على المزكي، هو السبيل الموصلة إلى التزكية، فهو من قبيل السبب والتزكية مسبب عنه، ومن ثم طُرح بها في صدر السورة لفتا إلى غرضها الأساس من أول الأمر.

وبالنظر في البناء الكلي للسورة نراها قد انتظمت جملة من الدلائل الموحية بمقصدها؛ حيث استهلت بمقدمة مقررة لمعنى التنزيه لله تعالى وأنه الملك ذو الجلال والعظمة، القدوس الموصوف بالكمال.

ومن شأن الملك أن يرسل الرسل بعزة وحكمة؛ لأنه تعالى له المُلك المطلق[١]؛ فاقتضت حكمته تعالى أن يبعث في العرب رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويخرجهم من ظلمات الجهل والكفر، إلى نور العلم والإيمان والتوحيد لله رب العالمين؛ وهذا هو غرض الرسالة وثمرتها.

وارتكزت السورة – بعد ذلك – على هذا الأساس، وانبنت على تلك المقدمة، فقامت على أسلوب التقابل (لفظيا ومعنويا)، أما المعنوي: فيتمثل في السمو

---

(١) المَلِك: هو الذي يستغني في ذاته وصفاته عن كل موجود، ويحتاج إليه كل موجود، بل لا يستغني عنه شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في وجوده ولا في بقائه، فكل شيء سواه هو له مملوك.. وهذا هو المُلْك المطلق.[ينظر: المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، لحجة الإسلام الغزالي، ت: بسام عبد الوهاب الجابي، نشر: الجفان والجابي– قبرص، ط: الأولى، ١٤٠٧هـ– ١٩٨٧م(ص ٦٦)].

والسقوط؛ حيث افترق الناس إزاء هذه الدعوة فريقين: فريق نكص وجحد بها فانحدر في الجهالة والكفر، وهم اليهود حملة التوراة وحفاظ ما فيها، لكنهم لم يعملوا بمقتضى علمهم فضلوا وأضلوا، ومن ثم نأوا عن هذه التزكية وبعُدوا؛ فسقطوا في دركات التسفل حتى وصلوا إلى دركة البهيمية، ولذا اختصت السورة بضرب مثلهم بالحمار يحمل أسفارا.

وفريق استجاب لهذه الدعوة ووافقها وانقاد لأوامرها، فَعَلا وارتقى في درجات السمو، وهم المؤمنون الذين خوطبوا بالسعي إلى التطهير والتزكية والإقبال على المزكي سبحانه، وإن بدا من بعضهم ما ينقص من كمال تلك التزكية؛ فقد عوتبوا في ذلك.

وأما التقابل اللفظي: فيتمثل في الأسلوب وطريقة الخطاب، وهو ما يكشف عنه البحث في مبحثيه الثاني والثالث، إن شاء الله تعالى.

وعليه، فالمقصدُ الذي آثرتُهُ آنفا ملائم لبناء السورة وما سيقت له من تقرير معنى التزكية، والترفع والنفرة عن كل ما يقدح فيها، بدلالة مطلعها المشتمل على تنزيه الله تعالى وتعظيمه وتمجيده؛ سواء في افتتاحها بالتسبيح والتقديس:﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾[الجمعة:١]، وهذه الآية كالمهاد للمعنى في السورة؛ أو بذكر الغرض من الرسالة في قوله تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[الجمعة:٢]، فصرح فيها بالتزكية، وهي غايةُ ما انضم إليها وانعطف عليها من التلاوة والتعليم.

فإن قلتَ: ما علاقةُ هذا المطلع بالغرض والمقصد؟ قلتُ: في الاستهلال بالتسبيح والتقديس إشارةٌ إلى الغرض من وجه يدق؛ " فالتسبيح تنزيه لله عن كل ما لا ينبغي

أن يُوصَف به، وتبرئه له من إضافة ما ليس من صفاته إليه "[١]، والتقديس: تطهير وتعظيم وتبريك، فالقُدُّوس بمعنى المُطهر من الآفات، المتصف بالكمالات، المبارك.. " فُعُّول "؛ من القُدْس وهو: الطهارة. ومنه قولهم: " سُبُّوح قُدُّوس "، يعني بقولهم: سُبّوح، تنزيهٌ لله، وبقولهم: قُدوسٌ، طهارةٌ له وتعظيم[٢]. فجمع اسمُه تعالى " القُدوس " بين نفي النقص، وإثبات الكمال، وبذا يلتقي مع التسبيح.

ولهذا علاقة وكيدة بالتزكية عن الأخلاق الرذيلة والعقائد الزائغة، والتحلي بالأخلاق الراجحة والعقيدة الراسخة؛ فإن تنزيهَ الله وتعظيمَه سبيلٌ إلى تزكية النفس وطهارتها من الآفات والأدناس والعقائد الباطلة؛ لأن حضورَ كمال الله تعالى في القلب وتعظيمَه في النفس سبب في زكاة تلك النفس.

وأيضا فإنه سبحانه لما كان منزها من العيوب، متصفا بالكمال؛ كان الواجب على عباده أن يتقربوا إليه بما يناسب صفاته – جلّت صفاتُه – من نزاهة النفس وكمال تزكيتها؛ تعبدا بمقتضى هذه الصفات على قدر الطاقة البشرية[٣]، فإذا تقرب إليه

---

(١) ينظر: كتاب العين(مادة: سبح)، وغريب القرآن، لابن قتيبة، ت: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م(ص٨)، وجامع البيان في تأويل القرآن، للإمام الطبري، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م(١/٤٧٤).

(٢) ينظر: غريب القرآن(ص ٨، ٩)، وجامع البيان(١/٤٧٥) ولسان العرب(مادة: قدس).

(٣) ذكر العلماء جواز أن يتصف العبد بما دلت عليه بعض أسماء الله تعالى وصفاته، التي يحب من عباده أن يتصفوا بما توجبه على ما يليق بالمخلوق؛ كالعليم والكريم والرحيم ونحوِها.. قال ابن تيمية:" فإن من أسمائه وصفاته ما يُحمد العبد على الاتصاف به، كالعلم والرحمة والحكمة وغير ذلك، ومنها ما يُذم العبد على الاتصاف به، كالإلهية والتجبر والتكبر".[كتاب الصفدية، لابن تيمية، ت: محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، مصر، ط: الثانية، ١٤٠٦هـ(٢/٣٣٨)، وينظر: التدمرية، لابن تيمية، ت: د. محمد بن عودة السعوي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط: السادسة ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م(ص٢١، وما بعدها)، وعدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن قيم الجوزية، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط: الثالثة، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م(ص٢٨٢، ٢٨٣)].

الخلق بهذا المعنى؛ زكت نفوسهم فتحقق لها الفلاح، مصداقا لقولِهِ تعالى:﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾[الأعلى:١٤]، وقولِهِ سبحانه:﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾[الشمس:٩].

وإذا كانت جميع الموجودات من خلقه مسبحةً مقدسة لذاته سبحانه؛ كان قمينا بالإنسان – وهو أعظم ما خلق الله وبرأ – أن يُقبل على خالقه مسبحا بحمده مقدسا له ومعظما، مقتديا برسوله المبعوث بالتزكية؛ ليرتقي في مراتب الفلاح دينا ودنيا؛ فإن ذلك مما تسمو به نفوس المسبحين القائمين بتعظيمه وتمجيده؛ لأن من أرفع ما تُرفع به المنازل وتعلو به الرتب؛ ذكر الله تعالى وتعظيمُه، وهو مدار العبادات والطاعات.

وقد قال تعالى عن الصلاة:﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[العنكبوت:٤٥]، وعن صلاة الجمعة:﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّه﴾ [الجمعة:٩]، فسماها ذكرا؛ والذكر أعم، ورتب الفلاح على ذكره بعد انقضاء الجمعة، فقال:﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الجمعة:١٠]، وقال في الصيام:﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة:١٨٥]، أي لتعظموا الله بالذكر له بما أنعم عليكم به من الهداية التي خذل عنها غيرَكم من أهل الملل. قاله الطبري[1]. وقال في ذكر المناسك:﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾[البقرة:١٩٨]، وبعد الفراغ منها:﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[البقرة:٢٠٠]، وعند ملاقاة العدو:﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الأنفال:٤٥]؛ فدل ذلك على مكانة ذكره تعالى في علو النفس وزكاتها.

(١) ينظر: جامع البيان(٣/٤٧٨).

والجمع بين هذه الأسماء الحسنى في المطلع:﴿ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾- وهو مما استأثرت به سورة الجمعة – له دلالات وإيحاءات تظهر في تمام مناسبتها لما ورد في السورة وتعلق بمقصدها؛ فإن " إثبات وصف الله تعالى بهذه الصفات الجليلة، يقتضي أنه منزه عما ضل في شأنه أهل الضلال من وصفه بما لا يليق بجلاله، وأول التنزيه هو نفى الشريك له في الإلهية، فإن الوحدانية هي أكبر صفة ضل في كُنهها المشركون وغيرُهم من أهل الضلال، وهى الصفة التي ينبئ عنها اسمُه العلم " الله " لأن أصلَه الإله، أي المنفرد بالإلهية "(١).

ومن الدلائل الناطقة بالإعجاز: تعليقُ التسبيح بالألوهية وما تدل عليه من القهر والهيبة، وارتيادُه لصدر السورة:﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾؛ تمهيدا لما بعده وبراعة مطلع لما يرد فيها من معان تتصل بالتزكية، وما يُلمح في تعديته باللام من معنى إخلاص العبادة لله؛ تنديدا بعقيدة اليهود الذين زاغوا فأزاغ الله قلوبهم.. وتردد لفظ الجلالة في مفاصلها ومعاقدها حتى النهاية، كقوله تعالى:﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[الجمعة:٤]، وقوله:﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[الجمعة:٥]، وقوله:﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ﴾[الجمعة:٦]، وقوله سبحانه:﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[الجمعة:٧]، وقوله:﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾[الجمعة:٩]، وقوله: ﴿ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الجمعة:١٠]، وقوله عز من قائل:﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[الجمعة:١١]؛ للإيذان بأنها قد عُنيت بإرساء أحكامٍ وإيراد تكاليفَ، ورسم منهج إلى التزكية والإصلاح عن طريق الرسول ﷺ ودعوته، وما تخلل ذلك من الترهيب من حال اليهود؛ والترغيب فيما عند الله؛ فناسب التعبير بصفة الألوهية.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م(٢٧/٣٥٦، ٣٥٧).

وهذه الأسماء الأربعة:﴿ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ملائمةٌ للتسبيح والتنزيه، فتكون من ترتب الحكم على الوصف المناسب المشعر بالعلية؛ لأن الموصوف بهذه الصفات جدير أن يختص بالتسبيح والتنزيه، " فالجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله مشعر بعلة الحكم"(١).

كما أن لها تعلقا بأحوال خلقه؛ إذ بعث فيهم رسولا يطهر نفوسهم ويزكيهم ويعلمهم.. فصفةُ " الملك " تعلقت بأن يدبر أمر عباده ويصلحَ شؤونهم، وصفةُ " القدوس " تعلقت بأن يزكي نفوسهم، وصفة " العزيز " اقتضت أن يلحق الأميين من عباده بمراتب أهل العلم ويخرجهم من ذلة الضلال؛ فينالوا عزة العلم وشرفه، وصفةُ " الحكيم " اقتضت أن يعلمهم الحكمة والشريعة(٢).

ثم هذه الأسماء الحسنى ملائمةٌ لما ذُكر من بعثه عز وجل في الأميين رسولاً منهم، فإن البعث تولية، وهى من شيم الملوك؛ والله تعالى ملك الملوك، فلما كان المبعوث يدعو إلى كل طهر وبركة، فيزكي المبعوثَ إليهم؛ ناسب التقديم بوصف باعثه سبحانه بالقدوس، أما العزيز الحكيم، فملائم لتعليمهم الكتاب والحكمة بعد إخراجهم من الضلال المبين(٣).

وجاء تأكيد بعثته صلوات الله عليه وسلامه، وأنه مبعوث من الله تعالى، بأسلوب القصر بتعريف الطرفين في قوله تعالى:﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾؛

---

(١) تفسير أبي السعود(إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، لأبي السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت(٨/ ٢٠٣)، وروح المعاني(١٦٥/٢٧).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير(٢٠٧/٢٨).

(٣) ينظر: بلاغة المناسبة في اقتران أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم، د. حسين إبراهيم إمام، دكتوراة ــ مخطوطة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا، ١٤٣٠هـ-٢٠١٠م(ص٤٤١).

لأن الموصول وصلتَه خبرُ المبتدأ الذي هو ضمير اسم الجلالة، العائد على ما تقدم من وصفه تعالى بعظيم الصفات؛ " لتكون الجملة اسميةً فتفيد – مع القصر – تقويةَ هذا الحكم وتأكيدَه، أي أن النبي ﷺ مبعوث من الله لا محالة "(١)؛ دفعا لإنكار المنكرين لبعثته المباركة، وحثا على اتباعه وطاعته ولزوم أمره، وأن التمسك بما جاء به من كتاب وحكمة هو السبيل إلى طهارة نفوسهم، وزكاة قلوبهم، ورشاد عقولهم.

ولذلك أوثر التعبير بالبعث على الإرسال في هذا المقام؛ لدلالته على أن بعثته ﷺ فيهم حياة لهم، فقد أحيا الله به قلوبهم واستنقذهم من جهالات الكفر والضلال المبين إلى الهدى وإلى الصراط المستقيم.

وأيضا لأن البعث أعم وفيه حركة وإثارة، وهو مناسب لصدر الدعوة بما ينبئ عنه مما يكابده ﷺ من مشاق في دعوة قومه في سبيل إحياء منهج الله فيهم بعد أن استحوذت عليهم الغفلة.

ويقوي من إفادة التوكيد أيضا، التعبير بـ" الذي" وأنه إنما جيء به للدلالة على أنه تعالى قد تخصص بما ذكر له من أمر بعث الرسول، وهذا شأن " الذى" حين يرد بعد الجمل التي قد سبق من السامع علم بها، كما ذكر الشيخ عبد القاهر؛ حيث قال: " إنه إنما اجتلب حتى إذا كان قد عُرف رجل بقصة وأمر جرى له، فتخصص بتلك القصة وبذلك الأمر عند السامع، ثم أريد القصد إليه، ذُكِر " الَّذي"(٢).

وفيه بيان لما أفاض الله عليهم من البركات بإرسال محمد ﷺ إليهم بالآيات والتزكية والتعليم، بعد أن كانوا في ضلال مبين؛ إظهارا لفضله ومَنِّه عليهم؛ إذ بعث

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير(٢٠٧/٢٨).

(٢) دلائل الإعجاز(ص٢٠٠).

فيهم رسولا منهم، ولذلك اختتمت هذه الآيات بقوله تعالى:﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[الجمعة: ٤].

قال ابن عطية: وهذه الآية تعديد نعمة الله عندهم فيما أولاهم(١)، ولأنه – كما قال القاضي عبد الجبار – لا يدل إلا على أن النبوّة والكتاب من فضله تعالى، فليس لأحد أن يتعلق بذلك(٢).

والأميون هم العرب؛ لأنهم لم يكن لهم كتاب، فلا يكتبون ولا يقرأون، على أصل الخلقة. قيل: بدأت الكتابة بالطائف، أخذوها من أهل الحيرة، وأهل الحيرة من أهل الأنبار(٣). وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من عداهم ولكنّ المنة عليهم أبلغ وأكثر(٤).

فلم تقف المنة على العرب الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ خاصة، وإنما تمتد وتتطاول لتشمل غيرهم ممن دخل في الدين إلى يوم القيامة؛ لأن " قوله: " وآخرين منهم" مجرورٌ عطفٌ على الأميين، أي بعث في الأميين الذين على عهده، وفي آخرين من الأميين لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون بهم، وهم الذين بعد الصحابة رضى الله عنهم. ويجوز أن ينتصب عطفا على المنصوب في قوله: " ويعلمهم " أي يعلمهم ويعلم آخرين، لأن التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان، كان كلُّه مستندا إلى أوله، فكأنه ﷺ هو الذي تولى كلَّ ما وجد منه"(٥).

---

(١) المحرر الوجيز(٥/ ٣٠٦).

(٢) تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، دار النهضة الحديثة(ص٤٢٤).

(٣) ينظر: تهذيب اللغة(مادة: " أمّ ")، والكشاف(٥٢٩/٤)، والمحرر الوجيز(٣٠٦/٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ت: محمود حسن، دار الفكر، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م(٢١٠/٢٨).

(٥) ينظر: معاني القرآن للفراء، ت: أحمد يوسف النجاتي، وآخرَيْن، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط: الأولى(١٥٥/٣)، وجامع البيان(٣٧٣/٢٣ - ٣٧٥) والكشاف(٥٣٠/٤)، ومفاتيح الغيب، للفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة: الثالثة ١٤٢٠ هـ(٥٣٨/٣٠، ٥٣٩)، والبحر المحيط(١٧١/١٠).

كما أن الظرفية في قوله: " في الأميين" توحي بعمومية البلاغ، فإنه ﷺ بُعث إلى الناس كافة، كما قال جل ثناؤه:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[سبأ:٢٨]. وهو ما استنبطه البقاعي من أن ذكر ظرف البعث مع إهمال غايته دال على أنها كل من يتأتى البعث إليه وهم جميع الخلق(١).

فإن قيل: ما وجه الامتنان بأن بعث نبيا أميا(٢)؟ قيل: ليوافق ما تقدمت به بشارة الأنبياء قبله، وليكون أبعد من توهم الاستعانة على ما أتى به من الحكمة بالكتابة، ولمشاكلة حاله حال الأمة الذين بعث فيهم، فيكون أقرب إلى موافقتهم(٣). فتلك أوجه ثلاثة.

وقد رتبت صفات الرسول ﷺ ترتيبا دقيقا، في قوله تعالى: ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾: حيث " ابتدأ بالتلاوة؛ لأن أول تبليغ الدعوة بإبلاغ الوحى، وثني بالتزكية؛ لأن ابتداء الدعوة بالتطهير من الرجس المعنوي وهو

---

(١) نظم الدرر(٢٠/٤٨).

(٢) قال الأزهري: وقيل للنبي ﷺ الأمي؛ لأن أمة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب، بعثه الله رسولا وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، وكانت هذه الخلّة إحدى آياته المعجزة، لأنه ﷺ تلا عليهم كتاب الله منظوما مع أميته تارة بعد أخرى، بالنظم الذي أنزل عليه، فلم يغيره ولم يبدل ألفاظه. وكان الخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها زاد فيها ونقص، فحفظه الله جل وعز على نبيه كما أنزله، وأبانه من سائر من بعثه إليهم بهذه الآية التي باين بينه وبينهم بها، وفي ذلك أنزل الله تعالى: وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[العنكبوت: ٤٨][تهذيب اللغة، مادة: " أمّ "].

(٣) ينظر: أحكام القرآن لأبي بكر الجصاص، ت: محمد صادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ(٥/٣٣٥)، والنكت والعيون، لأبي الحسن الماوردي، ت: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان(٦/٦)، ومفاتيح الغيب(٣٠/٥٣٨).

الشرك وما يعلق به من مساوئ الأعمال والطباع، وعقب بذكر تعليمهم الكتاب؛ لأن الكتاب بعد إبلاغه إليهم تُبَيّن لهم مقاصده ومعانيه، كما قال تعالى:﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[النحل:٤٤]، وتعليم الحكمة هو غاية ذلك كله؛ لأن من تدبر القرآن وعمل به وفهم خفاياه نال الحكمة "[١]، فرتبت الصفاتُ – على ذلك – بحسب ترتيبها في الواقع والوجود.

وقد ينظر في الترتيب من جهة أن دعوتَه ﷺ كانت بعد وجود الضلال منهم، فكانت رفعا لضلالهم الحاصل، فترتبت الصفات تبعا لذلك؛ وهو ما أبصره ابن الزبير حيث قال: " فلما كان المقصود هنا إنما هو ذكر الامتنان عليهم بهدايتهم بعد الضلال الذى كان وجد منهم، والتعريف بإجابة دعوة إبراهيم عليه السلام، أُخر ذكرُ تعليمهم الكتاب والحكمة المزيلين لضلالهم؛ ليكون تُلوُّه ذكر الضلال الذى أنقذهم الله منه بما علمهم وأعطاهم وامتن عليهم، فكان الكلام في قوة أن لو قيل: ويعلمهم ما به زوال ضلالهم"[٢].

وأوضح ذلك شيخنا المطعني بقوله: والمقام في سورة الجمعة مقام تمجيد للهِ وامتنان على عباده بجلائل النِعَم؛ فقُدمت التلاوة لأنها أُولى وسائل الهداية. وقُدِّمت "التزكية " على ما بعدها؛ لأنها المقصود الأهم من التربية والإصلاح المنشودين. وأُخر تعليم الكتاب والحكمة؛ ليظهر أثر النِعَم واضحاً إذا قُرِنَ بضده، وهو الضلال البين الذي كانوا فيه من قبل[٣].

---

(١) التحرير والتنوير(٢٠٩/٢٨).

(٢) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، لابن الزبير الغرناطي، ت: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان(٥١/١)، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، ت: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م(٤٣١/٣).

(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، مكتبة وهبة، ط: الأولى، ١٤١٣ هـ-١٩٩٢ م(١٧٥/٢).

ويذكر الإمام أبو السعود، وتبعه الأئمة، أن توسُّط التزكية للفصل بين تلك النعم والدلالة على تعددها، فيقول: وإنما توسطت التزكية، التي هي: تكميل النفس بحسب قوتها العملية وتهذيبها بحسب القوة النظرية، الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة؛ للإيذان بأن كلا من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر، فلو روعي ترتيب الوجود لتبادر إلى الفهم كون الكل نعمة واحدة، وهو السر في التعبير عن القرآن تارة بالآيات، وأخرى بالكتاب والحكمة؛ رمزا إلى أنه باعتبار كل عنوان نعمةٌ على حدة [١].

ويمكن أن يكون تقديم التزكية على التعليم من باب تقديم التخلية على التحلية، لأن التزكية تخلية عن الرذائل والتعليم تحلية بالفضائل، والحكمة هي غاية الكتاب في قوة فهمه والعمل به، فهي العلم المزين بالعمل والعمل المتقن بالعلم معقوله ومنقوله، ليضعوا كل شيء منه في أحكم مواضعه فلا يزيغوا عن الكتاب كما زاغ بنو إسرائيل[٢].

ولم يقف بيانُ القرآن عند ذكر الامتنان عليهم بهدايتهم وتزكية نفوسهم، وإنما أوغل في بيان حالهم قبل بعثة الرسول ﷺ؛ تأكيدا للمنّة، فقال تعالى:﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، " والجملة في موضع الحال من الأميين، أي ليست نعمة إرسال الرسول إليهم قاصرةً على رفع النقائص عنهم وعلى تحليتهم بكمال علم آيات الله وزكاة أنفسهم وتعليمهم الكتاب والحكمة، بل هي أجل من ذلك؛ إذ كانت منقذة لهم من ضلال مبين كانوا فيه وهو ضلال الإشراك بالله "[٣].

---

(١) إرشاد العقل السليم(٢٤٧/٨)، وروح البيان لإسماعيل حقي، دار الفكر، بيروت(٥١٤/٩)، وروح المعاني(٩٣/٢٨).

(٢) نظم الدرر(٥١/٢٠).

(٣) التحرير والتنوير(٢١٠/٢٨).

فالجملة – كما قال ابن عطية – أظهرت تأكيدَ النعمة بذكر حالهم التي كانت في الضد من الهداية[١].

كما أفادت دفع توهم غير المراد؛ فهي " بيان لشدة افتقارهم إلى من يرشدهم، وإزاحة لما عسى يتوهم من تعلمه ﷺ من الغير، فإن المبعوث فيهم إذا كانوا في ضلال مبين قبل البعثة، زال توهم أنه تعلم ذلك من أحد منهم"[٢].

ولذا جاءت بـ" إنْ " المخففة واللام الفارقة؛ تأكيدا لإغراقهم في الضلال. وذكر البقاعي أن وصفهم بهذا غاية في نفي التعلم من مخلوق عن نبيهم؛ إعظاماً لما جاء به من الإعجاز[٣].

وإذ قد تبين ما اكتنزه المطلع في ثناياه من هاته الدقائق الدالة على مقصد السورة والمعنى الأمّ الذي هو تزكية النفوس، فبنا أن ننظر في العلاقة بين اسم السورة وسياقه، وبين مَأمِّها.

ورد ذكر اسم السورة في سياق قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الجمعة:٩، ١٠].

---

(١) المحرر الوجيز(٥/ ٣٠٦).

(٢) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للقاضي البيضاوي، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٨هـ (٢١١/٥)، وحاشية شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي، مكتبة الحقيقة استانبول، تركيا، ١٤١١هـ-١٩٩١م(٣٩٧/٤)، وروح البيان(٥١٥/٩).

(٣) نظم الدرر(٥٢/٢٠).

فجاء اسم السورة في سياق الدعوة إلى السعي للاجتماع على ذكر الله، يعني الخطبة والصلاة، وترك ما سواه؛ فهي ـ لاريب ـ دعوة إلى التزكية بالإقبال على الله تعالى إقبالا يسمو بالنفس فيصرفها عن الشواغل الصارفة إلى عرض الدنيا الزائل، فتتخلى عن الشواغل الدنية، وتتحلى بالأوصاف السنية.

فجمعت الآية بين الأمرين: الدعوة إلى التزكية بحسن الإقبال على الملك القدوس والاجتماع على ذكره وعبادته، وما يلزمه من التطهير الحسي والمعنوي، وهو ما به ترقِّي النفس وتساميها. ثم ترك كل ما يشغل عن ذكره تعالى ويذهل عن دعوته؛ لأن به نزول إلى عرض الدنيا؛ وهو ما يَبعُد بالنفس ويحول بينها وبين تلك المكانة. وهي بذلك تنادي على ما في المطلع من التنزيه والتعظيم لله سبحانه.

قال البقاعي: ندبهم – ليكونوا أولياء الله – إلى التزكية المذكورة التي هي ثمرة الرسالة بما حاصله الإقبال بالكلية على الله والإعراض بالكلية عن الدنيا؛ ليجمع المكلف بين التحلي بالمزايا والتخلي عن الدنايا، فخص من المزايا أعظم تسبيح يفعله العاقل في أيام الأسبوع وهو الإسراع بالاجتماع العظيم في يوم الجمعة، ثم الإقبال الأعظم بفعل الصلاة التي هي سر اليوم الذي ضيعه اليهود واستبدلوا به ما كان سبب تعذيبهم بعذاب لم يعذب به أحد من العالمين(١).

ثم إنه تعالى أباح لهم بعد قضاء الصلاة أن ينتشروا في الأرض ابتغاء الرزق ونحوه من سائر المباحات، مع مصاحبة ذكر الله الذي يزكي نفوسهم ويهذب طباعهم ويسمو بأرواحهم؛ فإن في ذلك فلاحَهم.

أو كما قال صاحب الكشاف:" أطلق لهم ما حظر عليهم بعد قضاء الصلاة من الانتشار وابتغاء الربح، مع التوصية بإكثار الذكر، وأن لا يلهيهم شيء من تجارة ولا

(١) ينظر: نظم الدرر(٢٠/ ٦٢).

غيرها عنه، وأن تكون هممهم في جميع أحوالهم وأوقاتهم موكلة به لا ينفصون عنه؛ لأنّ فلاحَهم فيه وفوزَهم منوطٌ به"[١].

وبين هاتين الآيتين الوارد فيهما ذكر اسم السورة، بما تحمله من ديمومة ذكر الله تعالى الموصلة إلى التزكية، وبين مفتتح السورة بالتسبيح بصيغة المضارع الدال على تجدد التسبيح واستمراره؛ مناسبة لطيفة، وذلك " أن المتأمل في سياق الآيات يجدها كلها أوامر تجري في المستقبل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فناسب الافتتاح بلفظ المضارع " يسبح "[٢]؛ وهو ما يشير أيضا إلى مداومة تزكية النفس بدوام ذكر الملك الأعلى والإقبال على مرضاته. مع ملاحظة تكرار لفظ الجلالة تعانقا مع ما في المطلع من قوله: " يسبح لله" كما سبقت الإشارة.

ثم بنا أن ننظر إلى مقطع السورة وختامها لبيان صلته بالمعنى الأم، وذلك قوله تعالى:﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[الجمعة:١١].

وهذه الآية عتاب للمؤمنين على ما كان منهم من انصرافهم عن الخطبة وتركهم النبي ﷺ قائما يخطب، وتفرقهم إلى التجارة القادمة من الشام؛ وكان بالمدينة يومئذ جوع وغلاء سعر، فخرجوا فما بقي معه ﷺ إلا اثنا عشر رجلا[٣]، فقال ﷺ: والذي

---

(١) الكشاف(٤/ ٥٣٦).

(٢) ينظر: المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية، دكتوراه، للباحث: صالح بن عبد الله الشثري، إشراف: أ. د/ محمد أبو موسى، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى،١٤١٢هـ-٢٠٠١م(ص١٣٥).

(٣) في الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله، قال: بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ، إذ أقبلت عير تحمل طعاما، فالتفتوا إليها حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلا، فنزلت هذه الآية: { وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا }. أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - ←←←

نفسي بيده، لو خرجوا جميعا لأضرم الله عليهم الوادي نارا، أو لو اتبع آخرُهم أولَهم لالتهب عليهم الوادي نارا[١].

فعاتبهم الله تعالى لتهاونهم في التزكية وتفرقهم لرؤية التجارة واللهو، وكان الأحق بهم والأجدر أن يستمعوا للذكر والموعظة التي تزكي نفوسهم؛ لأن تجارة الآخرة خير وأبقى.

وهذا المقطع والختام ناظر إلى المطلع ومتسق به، من حيث كان المطلع مفتتحا بصيغة المضارعة الدالة على تجدد التسبيح والتنزيه لله تعالى، كأنه إشارة إلى التعريض بمن خرجوا إلى التجارة وتركوا الخطبة؛ لأن الغرض من هذه السورة – كما ذكر الطاهر – التنويهُ بصلاة الجمعة والتنديدُ على نفر قُطعوا عن صلاتهم وخرجوا لتجارة أو لهو، فناسب أن يحكى تسبيح أهل السموات والأرض بما فيه من دلالة على استمرار تسبيحهم وتجدده، تعريضا بالذين لم يتموا صلاة الجمعة[٢].

وأيضا من حيث الجمع بين الصفات العلية في المطلع؛ " لأن العظيم لا ينصرف عن مجلسه من كان عنده إلا عند انفضاض مجلسه أو إيذانه بانصرافهم. والقدوس: المنزه عن النقص وهو يرغب في حضرته. والعزيز: يعتز الملتفون حوله، فمفارقتهم

→→→

واللفظ له – كتاب الجمعة، باب: إذا نفر الناس عن الإمام في صلاة الجمعة فصلاة الإمام ومن بقي جائزة، ت: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط: الثالثة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م(٣١٦/١)(ح رقم:٨٩٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، بَابٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا }، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت(٥٩٠/٢)(ح رقم:٨٦٣).

(١) ينظر: جامع البيان(٣٨٦/٢٣- ٣٨٨) وأحكام القرآن للجصاص(٣٤٣/٥، ٣٤٤) والكشاف(٥٣٦/٤)، وتفسير ابن كثير(٤٤١/٤)، وأبو السعود(٢٥٠/٨).

(٢) التحرير والتنوير(٢٠٦/٢٨).

حضرته تفريط في العزة. وكذلك الحكيم إذا فارق أحد حضرته فاته في كل آن شيء من الحكمة كما فات الذين انفضوا إلى العير ما خطب به النبي ﷺ ؛ إذ تركوه قائما في الخطبة "[1].

وبذلك تظهر الصلة بين المقطع والمطلع والمعنى الأم للسورة، وهو التزكية التي تسمو بالنفس وتترقى بها في مراتب العبودية لله وحده لا شريك له، وهي أشرف المراتب وأعلاها.. كل ذلك في اتساق وبناء محكم لا عوج فيه ولا أمت.

(١) التحرير والتنوير(٢٠٧/٢٨).

المبحث الثاني

أثر المعنى الأم في خطاب التسفل والسقوط

بعد أن قررت الآياتُ السابقةُ أمر التوحيد والرسالة، وبينت أنه تعالى بعث رسوله ﷺ إلى الأميين ومَن بعدَهم بالهدى ودين الحق؛ تزكية وتطهيرا، أردف ذلك ببيان موقف اليهود حملةِ التوراة، وفيها نعتُ رسول الله ﷺ وصفتُه التي يعرفونها، وكيف أنهم لم يعملوا بمقتضى علمهم، بل كتموا الحق وأعرضوا عنه، مصداقا لقولهِ تعالى:﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة : ١٤٦]، وقولهِ جل ثناؤه:﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[البقرة :١٠١].

فلما كانوا بهذه الصفة من الضلالة والوضاعة أخرجهم من حيز الإنسانية وألحقهم برتبة البهيمية فشبههم بالحمار؛ إذ لم يقبلوا على التزكية التي تحصل من الإيمان بالله ورسوله ﷺ، مع حصول العلم لهم من التوراة التي تصدقه ﷺ ويصدقها في كونه نبي الله تعالى؛ فقال جل ذكره:﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[الجمعة:٥].

وبالنظر في مجريات الخطاب، نجدُ أثر تسفُّلهم وتدنيهم في إخباره تعالى عنهم بطريق الموصول:﴿ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ﴾، دون لقبهم الخاص بهم، يعني اليهود؛ تحقيرا لهم وتشنيعا عليهم؛ لأن في الصلة ما يُظهر سفاهتهم وضلالتهم نحو ما كلفوا به من الإيمان والعمل الذي يزكيهم، فإن علمهم بما في التوراة من شأنه أن يصدهم عما أخبر به عنهم، بل كان أدعى إلى عملهم بها لا إعراضهم عنها.

وأيضا ليبني على تلك الصلة ما تفرع عليها من التشبيه الذي وسمهم بالجهل

والغباوة والبلادة؛ إذ جعلهم بمنزلة الحمير.

ولما كانت حالهم من الغرابة بمكان اختير لفظ المَثَل، وهو الصفة العجيبة الشأن؛ للدلالة على صفتهم وشأنهم المتعجب منه في تحريف كتابهم ونبذ ما فيه من الحق.

وبناءُ " حُمِّلُوا " للمفعول يدل على سفالتهم؛ إذ يوحي بأن حملَهم التوراة وتكليفَهم بأحكامها لم يصدر عن رضا منهم وطواعية، بل عن إكراه وعنتٍ، كأنهم أكرهوا أنفسهم على حملها والقيامِ بها، فكانت أفعالهم عارية عن اختيارهم وتحببهم،" فلم يقبلوا على التوراة راغبين فيها مخلصين لها، فكابدوا حملها ثم لم ينتفعوا بأهم ما فيها، وهو البشارة برسالة النبي الخاتم ﷺ فكأنهم حرموا من كل شيء"[(١)].

وإذا كان هذا فعل من سفُلت نفسُه فأُلزِم بالتكليف مُكرَها؛ فانحطت دركته، زاد البيان في انحطاطهم فعبر بأداة التراخي: ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾؛ إشارة إلى تملصهم من الأمر بعد طول التكليف به، وهي دركة أسفل من سابقتها؛ " فإن عدمَ وفائهم بما عُهِد إليهم أعجبُ من تحملهم إياه"[(٢)].

وأورد سبحانه حكايتهم بأسلوب التمثيل، وهو من أقوى الأساليب في تصوير المعاني وتمكينها في النفوس، ولاسيما أن المقامَ مقامُ الذم والتشنيع على اليهود، فإن التمثيل ـ كما بيّن عبد القاهر ـ إن كان ذمًّا، كان مسُّهُ أوجعَ، ومِيسَمُه ألذع، ووقعُه أشد، وَحدُّه أحَد[(٣)].

---

(١) أساليب البيان والصورة القرآنية، د محمد إبراهيم شادي، دار والي الإسلامية، المنصورة، ط: الأولى، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م(ص ٥٠٤).

(٢) التحرير والتنوير(٢١٤/٢٨).

(٣) أسرار البلاغة(ص١١٥).

والتشبيه قائم على تمثيل صفتهم ـ في أنهم حملة التوراة وقرّاؤها وحفاظ ما فيها ثم لم يعملوا بها ولم ينتفعوا بآياتها، وفيها نعت رسول الله ﷺ والبشارةُ به ولم يؤمنوا به ـ بصفة الحمار الذي يحمل كتب العلم الكبار فهو يمشي بها ولا يدري منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب(١).

وصور الإمام الواحدي ـ وتبعه الرازي ـ هذا المعنى تصويرًا، فقال: شبههم والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها، بالحمار يحمل كتبا وليس له من ذلك إلا نقل الحِمل من غير انتفاعٍ بمعاني ما حَمَل، كذلك اليهود ليس لهم من كتابهم إلا وبالُ الحجة عليهم(٢).

وقال أبو العباس المبرد: إنهم قد تعاموا عنها، وأضربوا عن حدودها وأمرها ونهيها، حتى صاروا كالحمار الذي يحمل الكتب ولا يعلم ما فيها(٣).

ومن دلائل ترديهم وسقوطهم، تخصيص تشبيههم بالحمار؛ لأن الحمير تذكر بالجهل والبلادة، فزيد في تحقيرهم وذمهم؛ ومن ثم قال العلوي بإمكانية حمل التشبيه على الإفراد – وإن كان القصدُ حمله على التركيب إذ ليس الغرض إفرادَ الحمار بالتشبيه – يقول: فإن شئتَ جعلت التشبيه مطلق الحمار في الغباوة والجهل والبلادة وسقوط النفوس عن كريم الخصال، وشريف الفعال، وهذه حالة اليهود(٤).

---

(١) ينظر: معاني القرآن(٣/١٥٥)، والكشاف(٤/٥٣٠)، ومفاتيح الغيب(٣٠/٥٣٩)، ، والبحر المحيط(١٠/١٧٣).

(٢) التفسير البسيط للواحدي النيسابوري، نشر: عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط: الأولى، ١٤٣٠هـ(٢١/٤٥٠)، ومفاتيح الغيب(٣٠/٥٤٠).

(٣) الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس المبرد، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط: الثالثة،١٤١٧هـ- ١٩٩٧م(٣/٩٨).

(٤) ينظر: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٣هـ(١/١٨١).

كما أوثر التعبير بالأسفار . وهي كتب العلم الكبار، وفيها معنى الكشف؛ لأنها تسفر عن معانيها . نعيًا على اليهود وإظهارا لجهلهم وضلالهم وإعراضهم عن تزكية نفوسهم؛ " فإن التوراة وإن كانت تكشف عن معانيها إذا قرئت وتُحقق ما فيها فالجاهل لا يكاد يستبينها كالحمار الحامل لها "[١].

ومن آيات سفولهم وانحدارهم، تكذيبُهم بآيات الله تعالى، وبلغ ذلك منهم مبلغا كان في غاية الشر والفساد، كما ذكر الرازي[٢].

وأوضح الطاهرُ بنُ عاشور أن علمَ اليهود بما في التوراة أدخلوا فيه ما صيَّره مخلوطا بأخطاء وضلالات ومُتَّبَعا فيه هوى نفوسهم وما لا يعدو نفعهم الدنيوي، ولم يتخلقوا بما تحتوي عليه من الهدى والدعاء إلى تزكية النفس، وقد كتموا ما في كتبهم من العهد باتباع النبي الذي يأتي لتخليصهم من ربقة الضلال، وبذلك كانت هذه الآية كالتتمة لما قبلها[٣].

ولذلك بولغ في تبئيس حالهم بذم مَثَلهم، فقال تعالى:﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ فهو ذم لمَثَلهم والمراد ذمهم أنفسهم بطريق اللزوم، لأنك إذا ذممت الصفة فقد ذممت الموصوف بها[٤].

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ت: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط: الأولى،١٤١٢هـ(ص٤١٢)، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، ت: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة(٣/٢٢٥)، وروح البيان (٩/٥١٦).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب(٣٠/٥٤٠).

(٣) التحرير والتنوير(٢٨/٢١٣).

(٤) ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحدي النيسابوري، ت: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م(٤/٢٩٥)، وحاشية زاده على البيضاوي(٤/٣٩٨).

وهذه الجملة متأولةٌ بوجهين: إما على حذف المضاف، أي: " بئس مثلُ القوم مثلُ الذين كذَّبُوا " فمَثَلُ المحذوفُ هو المخصوصُ بالذمِّ، وقد حُذِف وأُقيم المضافُ إليه مقامهُ؛ لأنه لا بُدَّ مِنْ تصادُقِ فاعلِ نِعْم وبِئْسَ والمخصوصِ، وهنا المَثَلُ ليس القومَ المكذِّبين.

أو على حذف المخصوص، و" الذين " صفةُ القوم، في موضع خفض، أي: بئس مثلُ القوم المكذبين مثَلُهُم، أي مثل هؤلاء الذين حملوا التوراة [١].

وخرَّجه الكشافُ على حذف التمييز، فقال: " بئْسَ مَثَلاً مَثَلُ القوم "، فيكونُ الفاعلُ مستترا في بئس، مُفَسَّرٌ بـ" مَثَلاً "، و" مَثَلُ القومِ " هو المخصوصُ بالذمِّ، والموصولُ صفةٌ له، وحُذِفَ التمييزُ. وتُعُقّب بأن سيبويه نص على أن التمييز الذي يفسر الضمير المستكن في نِعْم وبِئْس وما أُجري مجراهما لا يجوز حذفُه[٢]، وأجيب بأن ذاك تقرير لحاصل المعنى، وهو أقربُ لاعتبار الوجه الأول[٣]. وقد صرح الزمخشري في المفصل بالوجهين السابقين[٤].

---

(١) ينظر: التبيان في إعراب القرآن، للعكبري، ت: علي محمد البجاوي، نشر: عيسى البابي الحلبي (١٢٢٢/٢)، وشرح المفصل للزمخشري، لابن يعيش، ت: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م(٤٠٣/٤، ٤٠٤)، والبحر المحيط(١٧٣/١٠)، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، ت: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق(٣٢٧/١٠)، وحاشية زاده على البيضاوي(٣٩٨/٤).

(٢) ينظر: الكشاف(٥٣٠/٤)، والبحر(١٧٣/١٠)، والدر المصون(٣٢٧/١٠، ٣٢٨)، والألوسي(٩٥/٢٨)، ويراجع: الكتاب لسيبويه، ت: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: الثالثة، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م(١٧٥/٢- ١٧٧).

(٣) روح المعاني(٩٥/٢٨).

(٤) قال: " ومن حق المخصوص أن يجانس الفاعل، وقولُه عز وجل: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ على حذف المضاف، أي: ساء مثلاً مثلُ القوم، ونحوُه قوله تعالى: ﴿ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ أي: مثلُ الذين كذبوا، ورُئِيَ أن يكون محل الذين مجرورًا صفةً للقوم، ويكونَ المخصوصُ بالذم محذوفا، أي: بئس مثلُ القوم المكذبين مثَلُهم".[المفصل في صنعة الإعراب، للزمخشري، ت: د. علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ط: الأولى،١٩٩٣م(ص٣٦٤)].

وهذه الأوجه غايتها بيانُ مذمةِ القوم وسوءِ حالهم وبلوغهم في السوء مبلغا عظيما؛ فلم يقفوا عند تحريف التوراة وإنكار صفة رسول الله ﷺ، بل ضموا إلى جهلهم بمعاني التوراة وتكذيبهم بها، تكذيبا بآيات الله، وهي القرآن . على ما ذكر العلماء[1] . وكفى بذلك ترديا وسقوطا.

وكان وصفهم بالموصول وصلتِهِ:﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا ﴾ في مقام التشهير والتسجيل عليهم بنعوت السوء، أدل على سفالتهم وبعدهم من الهداية والتزكية؛ فإن في الموصول إيماءً إلى سببية الوصف الذي في الصلة فيما يرد عليهم من الحكم، وهو خِذلان الله تعالى لهم بعدم الاهتداء،﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾.

وهذا الحكم:﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ بمثابة النتيجة المترتبة على المقدمة، فهو تذييل مقرر لمضمون ما قبله؛ وذلك أنهم حين كُلِّفوا بحمل التوراة والعمل بموجبها؛ تزكية لنفوسهم، أعرضوا عنها وانسلخوا منها بالتحريف والتكذيب، وصار ذلك لهم دأبا وديدنا، فكان الظلم صفة راسخة لهم، " فأخبر عنهم بأن سوء حالهم لا يرجى لهم منه انفكاك؛ لأن الله حرمهم اللطف والعناية بإنفاذهم لظلمهم بالاعتداء على الرسول ﷺ بالتكذيب دون نظر، وعلى آيات الله بالجُحد دون تدبر"[2].

وعموميةُ هذا الحكم يشمل كلَّ ظالم، فيدخل فيه هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب الأنبياء والكفر بآيات الله . كما قال العلماء[3]. دخولا أوّليًّا؛ لأن الكلام فيهم . كما ذكر

---

(١) ينظر: الوسيط للواحدي(٤/٢٩٥)، وزاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن الجوزي، ت: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ(٤/٢٨١)، وتفسير الخازن(لباب التأويل في معاني التنزيل) علاء الدين علي بن محمد البغدادي، الشهير بالخازن، دار الفكر، بيروت،١٣٩٩هـ-١٩٧٩م(٧/٨٧)، والتحرير والتنوير(٢٨/٢١٤).

(٢) التحرير والتنوير(٢٨/٢١٤، ٢١٥).

(٣) ينظر: جامع البيان(٢٣/٣٧٨)، والوسيط للواحدي(٤/٢٩٥)، وتفسير البغوي(معالم التنزيل) لمحي السنة، محمد بن مسعود البغوي، ت: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولى،١٤٢٠هـ (٥/٨٣)، ومفاتيح الغيب (٣٠/٥٤٠).

الشوكاني[١]. فكان مقتضى الظاهر: " لا يهديهم "، لكنه أظهر؛ تعميما وتعليقا للحكم بالوصف، على نحو ما ذكر البقاعي[٢].

ثم إنهم لم يقفوا عند هذا الحد من التردي، بل زادوا في ذلك، فلم يكتفوا بأن انسلخوا من العمل الذي كُلفوه، وإنما انحطت بهم الدركة فادعوا عكس ذلك تبجحًا، بزعمهم أنهم أولياء لله من دون الناس؛ ادعاءً للشرف والفضيلة مع عدم وجود ما يدل على ذلك من واقع أمرهم، فذكرهم الله تعالى بادعائهم الكاذب، وكانت الحجة عليهم أقوى بالجبن عن المواجهة؛ وذلك قوله عز وجل:﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الجمعة:٦ ـ ٨].

ومن مظاهر خطاب التسفل هنا، أنه تعالى حين أراد مخاطبتهم؛ إظهارا لكذبهم في دعواهم الولاية؛ لم يخاطبْهم كِفاحًا فحرمهم عز خطابه، إذ لم يتأهلوا لذاك الشرف، فأعرض عنهم، آمرا نبيه أن يقول لهم:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا ﴾؛ تقريعا وتوبيخا، وهذا من خطاب الذم والتوبيخ، وقد ندر في القرآن الكريم إعراضا عن أصحابه وتحقيرا لهم[٣]، وليس كذلك خطابُه تعالى للمؤمنين في قوله:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فهو خطاب مدح وتشريف، وهو كثير في التنزيل كثرة ظاهرة.

---

(١) ينظر: فتح القدير، لمحمد بن علي الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٤هـ(٥/٢٦٩).

(٢) نظم الدرر(٢٠/٥٧).

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن(٢/٢٣٠)، والإتقان (٣/١١٠).

ولنا أن نوازن هنا بين خطاب الذم لليهود، وبين خطاب العتاب للمؤمنين حين وقعت من بعضهم المخالفة لَمَّا رأوا التجارة فانفتلوا إليها تاركين الخطبة، وقد حكت السورة موقفهم هذا في قوله تعالى:﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[الجمعة:١١]، وانتقل الكلام من الحضور إلى الغيبة؛ إعراضا عن مثل هذا الصنيع وتنفيرا منه.

وكان انفضاضهم إلى التجارة لِمَا أصابهم من القحط، ولذلك جعل الضمير لها، فقال: " انفضوا إليها ". قال الفراء: وإنما اختير انفضوا إليها – مع جواز أن يقول "إليهما " أو " إليه " فيجُعلا كالفعل الواحد، أو يُذكَّر على نية اللهو– ؛ لأن التجارة كانت أهم إليهم، وهم بها أسرّ منهم بضرب الطبل؛ لأن الطبل إنَّما دل عليها، فالمعنى كُلِّه لها[1].

ولعلنا نلمس الفرق بين كلا الخطابين مع وجود المخالفة، فلما كانت مخالفة اليهود عن إصرار وتعمد واستعلاء وتكبر، ناسبهم خطاب الذم والتوبيخ والتقريع، وسلك الخطاب معهم مسلك التحدي والتهديد. ولما كانت مخالفة المؤمنين عن غير قصد ولا إصرار ناسبهم خطاب العتاب الرقيق الحاني؛ ولذا سلك الخطاب معهم مسلك النصح والإرشاد.

ولذلك يقول البقاعي: ولما كان هذا فعل من سفلت همته عن سماع كلام الحق من الحق، أمره ﷺ بوعظهم إلهابا لهم إلى الرجوع إلى تأهلهم للخطاب ولو بالعتاب؛ ترغيباً في الرجوع إلى ما كانوا عليه من طلب الخير من معدنه[2].

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء(١/٢٨٧، ٣/١٥٧)، ومفاتيح الغيب(٣٠/٥٤٤) والقرطبي(١٨/١١١).

(٢) نظم الدرر(٢٠/٧٠، ٧١).

ونعود إلى خطاب الذم لليهود، قال البقاعي: ولما كان قولهم أنهم أولياء الله وأحباؤه في غاية البعد من هذا المثل؛ استأنف ما يدل على صحة المثل قطعا، فقال معرضا عنهم آمرا لمن كذبوه بتبكيتهم:﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا ﴾[١].

فهذه الآية كالتدليل على جهلهم وتبجحهم في ادعاء الفضيلة من واقعهم؛ " فأعقب تمثيلَ حالِ جهلهم بالتوراة بذكر زَعْمٍ من آثار جهلهم بها؛ إبطالا لمفخرة مزعومة عندهم أنهم أولياءُ الله وبقية الناس ليسوا مثلَهم. وذلك أصل كانوا يجعلونه حجة على أن شؤونهم أفضل من شؤون غيرهم"[٢].

وندائهم بـ " الذين هادوا "[٣] ذم لهم أيضا؛ " لأنهم مالوا عن الإسلام والحق إلى اليهودية، وهى من الأديان الباطلة بعد مجيء الإسلام، وكان اسمَ مدح ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازما لهم وإن لم يكن فيه معنى المدح "[٤].

وكلمة الشك " إنْ " في الموضعين للإشارة إلى أن قولهم إنهم أولياء لله لا ينبغي أن يُجزم به لوجود ما يكذِّبه[٥].

---

(١) نظم الدرر(٢٠/٥٧).

(٢) التحرير والتنوير(٢٨/٢٢٧).

(٣) اختلف العلماء في سبب تسميتهم به. فقال بعضهم: سمّوا بذلك لأنهم هادوا أي تابوا من عبادة العجل، كقوله إخبارا عنهم:﴿إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ﴾[الأعراف:١٥٦]. وقال بعضهم: لأنّهم هادوا، أي مالوا عن الإسلام وعن دين موسى. وقال ابن الأعرابي: يقال: هاد إذا رجع من خير إلى شر أو من شر إلى خير. سمي اليهود بذلك لتخليطهم، وكثرة انتقالهم من مذاهبهم. وقال أبو عمرو بنُ العلاء: لأنّهم يتهوّدون أي يتحرّكون عند قراءة التوراة.[ينظر: الكشف والبيان للثعلبي، ت: أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط:الأولى،١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م(٢/٢٠٧، ٢٠٨)، والتفسير البسيط،(٢/٦٠٧-٦١٠)، وتفسير البغوي(١/١٢٤)، ومفاتيح الغيب(٣/٥٣٦)].

(٤) ينظر: المفردات في غريب القرآن(ص٨٤٧)، وروح البيان(٩/٥١٨).

(٥) ينظر: حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، دار صادر، بيروت(٨/١٩٥)، وروح المعاني(٢٨/٩٦).

ويدعمه إيثار " الزَّعْم " الذي هو مظِنَّة الكذب، ويغلب في الباطل من القول وفيما يُشك فيه ولا يُحَقَّق[١]؛ لأنه يوحي بكذب دعواهم ولاية الله وبطلانِها، ومن ثم " لم يضفْ أولياءَ إليه تعالى كما أضيف في قوله سبحانه:﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّـهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[يونس:٦٢]؛ ليؤذن بالفرق بين من يدعي الولاية ومن يخصه عز وجل بها "[٢].

كما أظهر تعالى كذبهم وافتراءهم فيما ادعوا من الفضيلة والولاية، بطريق الاحتجاج عليهم ببطلان دعواهم؛ فأمر رسوله ﷺ أن يقول لهم:" إن كنتم صادقين في قيلكم وزعمكم، فتمنوا على الله أن يميتكم وينقلكم سريعا إلى دار كرامته التي أعدّها لأوليائه؛ لتستريحوا من كُرَب الدنيا وهمومها وغمومها، وتصيروا إلى روح الجنان ونعيمها بالموت "[٣].

وقد وُثِّق الكلام وأُحكم بأسلوبي شرط، حذف جواب الثاني اكتفاء بدلالة ما قبله، أي: إن كنتم صادقين في زعمكم واثقين بأنه حق فتمنوا الموت. وعُلّق تمنيهم على شرط مفقود، وهو كونهم صادقين، وليسوا بصادقين؛ فلا يقع التمني، والمقصود من ذلك: التحدي وإظهار كذبهم؛ فإن من أيقن أنه من أهل الجنة أحب أن يتخلص إليها من هذه الدار التي هي قرارة الأكدار[٤].

---

(١) ينظر: المفردات(ص٣٨٠)، ولسان العرب(مادة : زعم)، وروح البيان(٥١٨/٩).

(٢) حاشية ابن التمجيد على تفسير البيضاوي، مصطفى بن إبراهيم الرومي الحنفي، ت: عبد الله محمود عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى،١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م(٨٦/١٩)، وروح المعاني(٩٥/٢٨).

(٣) ينظر: جامع البيان(٣٧٩/٢٢)، والكشاف(٥٣١/٤)، والألوسي(٩٥/٢٨).

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب(٦٠٨/٣)، والبحر(٤٩٨/١) ، وأبو السعود(٢٤٨/٨) وروح البيان(٩٥/٢٨).

فأحيط الأسلوب بسياج الشك:﴿ إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، فأفاد إلهابا وتهييجا؛ لعدم تحقق ما ادعوا وظهور كذبهم فيه، وهو ما يجعلهم في سفالة وضَعة.

ثم أخبر تعالى عنهم بما سيكون منهم من عدم تمني الموت، لعلمهم أنهم كاذبون، فقال: ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾؛ كشفا لبطلان دعواهم بعد كشف، وبيانا لكذبهم غِبّ بيان؛ " وذلك أنهم عرفوا أنهم كفرة، ولا نصيب لهم في الجنة، لأنهم تعمدوا كتمان أمر النبي ﷺ وتكذيبَه"(١).

وقال ابن عطية: أخبر تعالى عنهم بأنهم لا يتمنونه ولا يَلقَونه إلا كُرها لعلمهم بسوء حالهم عند الله وبعدهم منه(٢). فلم يقدموا بين أيديهم ما يطمئنون إليه، وما يرجون الثواب والقربى عليه، إنما قدموا المعصية التي تخيفهم من الموت وما وراءه. والذي لم يقدم الزاد يجفُل من ارتياد الطريق(٣).

فما قدمته أيديهم هو سبب انتفاء تمنيهم، والباء في:﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ سببية متعلقة بما يدل عليه النفي، أي يأبون التمني بسبب ما عملوا من الكفر والمعاصي الموجبة لدخول النار، والأصل أن يقال: بما قدموه وعملوه، فأضاف ذلك إلى اليد، على نحو ما تتمثل به العرب في كلامها؛ لأن عُظْمَ جنايات الإنسان بيده، فيضاف إلى اليد كل جناية، وإن لم يكن لليد فيها عمل(٤).

---

(١) الوسيط للواحدي(١/١٧٧).

(٢) المحرر الوجيز(٥/٣٠٨).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط: السابعة عشرة، ١٤١٢هـ (٦/٣٥٦٨).

(٤) ينظر: جامع البيان(٢/٣٦٨)، والوسيط للواحدي(١/١٧٧)، والإرشاد(٨/٢٤٨)، وروح البيان(٩/٥١٩).

وفيه مجاز التعبير بالجزء عن الكل؛ إظهارا لأثره في الفعل، وفيه إيماء إلى ما جنته أيديهم من تحريف أحكام التوراة وتغيير الوصف النبوي.

ومنع الألوسي جعلَ الإسناد مجازيا، واليدُ على حقيقتها، فيكون المعنى بما قدموا بأيديهم كتحريف التوراة؛ ليشمل ما قدموا بسائر الأعضاء، وهو أبلغ في الذم(١).

ورأى الطاهر ـ تبعا لأبي حيان ـ جواز الحمل على الوجهين، فقال: والمراد بما قدمت أيديهم، ما أتوه من المعاصي سواء كان باليد أم بغيرها بقرينة المقام، فقيل عبر باليد هنا عن الذات مجازا كما في قوله:﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[البقرة: ١٩٥]؛ لأن اليد أهم آلات العمل. وقيل: أريد بها الأيدي حقيقة؛ لأن غالب جنايات الناس بها، وهو كناية عن جميع الأعمال، ولعل التكني بها دون غيرها لأن أجمع معاصيها وأفظعها كان باليد، فالأجمع هو تحريف التوراة والأفظع هو قتل الأنبياء، لأنهم بذلك حرموا الناس من هدى عظيم. وإسناد التقديم للأيدي على الوجه الأول حقيقة، وعلى الوجه الثاني مجاز عقلي(٢).

ولنا أن ننظر في إيثار نفي التمني هنا بـ" لا " دون " لن " كما في البقرة، في قوله تعالى: ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[البقرة:٩٥]، وهل لذلك من دلالة في خطاب التسفل؟

حاصل ما ذكره العلماء أنهم ربطوا انتفاء التمني بدعوى اليهود الفضيلة والولاية، وأنه " لما كانت دعواهم في البقرة بالغة قاطعة وهي كون الجنة لهم بصفة الخلوص، وهو غاية ما يطلبه المطيع ولا مطلوب وراءه؛ بالغ في الرد عليهم بلن وهو أبلغ

---

(١) روح المعاني(٣٢٩/١)، وينظر: تفسير القاسمي (محاسن التأويل) للإمام محمد جمال الدين القاسمي، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٨ هـ(٣٥٤/١).

(٢) التحرير والتنوير(٦١٦/١)، ويراجع: البحر المحيط (٥٠٠/١، ٥٠١).

ألفاظ النفي، ودعواهم في الجمعة قاصرة مترددة، وهي زعمُهم أنهم أولياء لله، وهو ليس المطلوب الذي لا مطلوب وراءه؛ فاقتصر على لا "[١].

وهو ما أكده الرازي وتبعه أبو حيان من أن دعواهم في البقرة أعظم من دعواهم في الجمعة؛ لأن السعادة القصوى وهي الحصول في دار الثواب، فوق مرتبة الولايةح لأن الثانية إنما تراد لحصول الأولى، و" لن " أبلغ في النفي من " لا " ، فجعلها لنفي الأعظم[٢].

ووجه ذلك أبو جعفر بن الزبير بأن آية البقرة لما كان الوارد فيها جوابا لحكم أخروي يُستقبل، وليس في الحال منه إلا زعمٌ مجردٌ واعتقاد أن الأمر يكون كذلك؛ ناسبه النفي بـ" لن" الموضوعة لنفى المستقبل؛ ولما كان الوارد في الجمعة جوابا لزعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس، وذلك حكم دنياوي ووصف حالي لا استقبال فيه؛ ناسبه النفي بـ" لا " التي لنفى المستقبل والحال[٣].

وأرى أنه تعالى لما فصّل في البقرة قبائحهم وجناياتِهم ومخالفتَهم أمر نبيهم موسى عليه السلام بعد ظهور البينات، كالعصى، وفلق البحر، ورفع الجبل فوقهم، وإغداق النعم عليهم .. وسائر الآيات الدالة على صدقه عليه السلام الموجبة للانقياد له

---

(١) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل، للخطيب الإسكافي، ت: د. محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط: الأولى١٤٢٢هـ-٢٠٠١م(٢٦٦/١، ٢٦٧)، وأسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، لمحمود بن حمزة الكرماني، ت: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة (ص٧٦)، وكشف المعاني في المتشابه من المثاني، بدر الدين بن جماعة، ت: د. عبد الجواد خلف، دار الوفاء، المنصورة، ط: الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م(ص١٠٣).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب(٦٠٨/٣)، والبحر المحيط(٤٩٩/١).

(٣) ينظر: ملاك التأويل(٤٧/١).

بالإيمان الذي يزكي النفس، فما كان منهم إلا العناد واللجاجة في الطغيان والانحطاط في دركات الكفر والبغي، فحرفوا التوراة، وعبدوا العجل، وصرحوا بالعصيان، حتى قتلوا أنبياء الله تعالى؛ ناسب أن يؤكد انتفاء تمنيهم الموت بـ" لن "؛ إظهارا لمدى إجرامهم وكفرهم، وأنهم لن يتمنوا الموت أبدا؛ فرارا من العذاب لعلمهم بقبح أعمالهم وسوء مصيرهم؛ ولما أجمل هاهنا في الجمعة جناياتهم ولم يفصل قبائحهم، اكتفى بـ" لا "، لأنه دون لن في إفادة معنى النفي.

وهذا ما ألمح إليه ابن جماعة بأن آية البقرة وردت بعد ما تقدم منهم من الكفر والعصيان وقتل الأنبياء؛ فناسب حرف المبالغة في النفي لتمنيهم الموت لما يعلمون ما لهم بعده من العذاب، لأن " لن " أبلغ في النفي عند كثير من أئمة العربية، وآية الجمعة لم يتقدمها ذلك، فجاءت بـ" لا " الدالة على مطلق النفي من غير مبالغة(١).

فاجتمع الموضعان إذًا على إبراز كذب القوم وخستهم وانحطاطهم وحرصهم على الدنيا، وبُعدهم من الآخرة، ومن ثم إحجامهم عن التمني.

ومن آثار خطاب التسفل أيضا، تكرير وسْمَهم بالظلم بعد تقدم وصفِهم به في قوله تعالى:﴿ وَاللَّـهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ إبرازا لبغيهم وميلهم عن الحق، فقال عز وجل:﴿وَاللَّـهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾، وأصل الظلم: الجورُ ومجاوزةُ الحد، وهؤلاء قد تجاوزوا في كفرهم ومخالفتهم أمر الله ورسوله ﷺ، وجحودهم نبوته، وفيما اجترحوا من السيئات، وما ادعوا من ولاية الله مع عدم التلبس بشيء من مقتضياتها(٢).

وهذا إخبار بمعنى التهديد والوعيد؛ لتعلق علم الله بالظالم وغيره، فتخصيصهم لحصول الوعيد، وكان المقتضى للضمير لتقدم المَعاد، لكنه آثر الإظهار؛ لذمهم

---

(١) كشف المعاني(ص١٠٤).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب(٢/٣٦٩)، والبحر المحيط(١/٥٠١).

والتسجيل عليهم بالظلم في كل ما يأتون ويذرون من الأمور التي من جملتها ادعاء ما هم عنه بمعزل. والجملة تذييل لما قبلها مقررة لمضمونه، أي عليم بهم وبما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصي المفضية إلى أفانين العذاب، وبما سيكون منهم من الاحتراز عما يؤدي إلى ذلك، فوقع الأمر كما ذكر فلم يتمن منهم موته أحد(١).

كما توعدهم الله تعالى بالموت الذي لا مفر منه في قوله:﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾ وهو" تصريح بما اقتضاه التذييل السابق من الوعيد وعدم الانفلات من الجزاء عن أعمالهم"(٢).

وتكرير الأمر" قل" مع قرب العهد بالأمر السابق؛ لزيادة تبكيتهم وتقريعهم. ووصف الموت بالموصول لتصوير هلعهم منه وجبنهم من لقائه؛ لما يعلمون من سوء المكانة وانحطاط المنزلة، وللتنبيه على خطئهم إذ ظنوا أن الفرار ينجيهم؛ فإن الموت نازل بهم لا محالة فروا أو لم يفروا.. وهو ما أوحت به فاء التعقيب:﴿ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾، فإنها تفيد " المبالغة في عدم الفوت؛ وذلك أن الفرار من الشيء عادة سبب الفوت عليه، فجيء بالفاء لإفادة أن الفرار سبب الملاقاة، مبالغة فيما ذكر وتعكيسا للحال"(٣).

وإنما قيل لهم ذلك بعد ظهور فرارهم من التمني، أي إن الموت الذي تفرون منه ولا تجسرون أن تتمنوه خيفة أن تؤخذوا بوبال كفركم؛ فإنه ملاقيكم البتة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه(٤).

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز(١/١٨١)، والبحر(١/٥٠١) والإرشاد(٨/٢٤٨، ٢٤٩) وروح البيان(٩/٥١٩).

(٢) التحرير والتنوير(٢٨/٢١٨).

(٣) ينظر: زاده على البيضاوي(٤/٣٩٨)، والشهاب(٨/١٩٥)، وروح المعاني(٢٨/٩٧).

(٤) ينظر: الكشاف(٤/٥٣١)، والإرشاد(٨/٢٤٩) وروح البيان(٩/٥١٩)، وروح المعاني(٢٨/٩٦).

وأُدخلت الفاء في الخبر؛ لما في الذي من معنى الشرط والجزاء، كأنه قال: إن فررتم من الموت، فإنه ملاقيكم، ويكون مبالغة في الدلالة على أنه لا ينفع الفرار منه، وإلقاؤها صواب[١].

فإن قيل: الموت ملاقيهم على كل حال فروا منه أو لم يفروا، فما معنى الشرط والجواب هنا؟ قيل: إن هذا على وجه الرد عليهم إذ ظنوا أن الفرار ينجيهم[٢].

وأُكّد المعنى بإعادة حرف التوكيد مصحوبا بضمير الاسم الذي لـ " إنّ " لطول الكلام[٣]؛ تأكيدا لهذه الحقيقة ودحض ما في ظنونهم من أن الفرار من أسباب الموت ينجيهم.

وهذا كقوله سبحانه:﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[الكهف: ٣٠]. على تأويل الجزاء، قال الفراء: هو في مذهب جزاء، كقولك: إن من عمل صالِحًا فإنّا لا نضيع أجره، فتضمر فتضمّن الفاء فِي قوله " فإنّا " وإلقاؤها جائز. وهو أحبُّ الوجوه إليّ[٤].

---

(١) ينظر: معاني القرآن(٣/١٥٥، ١٥٦)، والكشاف(٤/٥٣١)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ت: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط: الثانية،١٣٨٤هـ-١٩٦٤م(١٨/٩٦)، والبحر(١٠/١٧٣)، وزاده على البيضاوي(٤/٣٩٨).

(٢) ينظر: التفسير البسيط(٢١/٤٥٢)، ومفاتيح الغيب(٣٠/٥٤١).

(٣) ينظر: معاني القرآن للأخفش، ت: د. هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: الأولى،١٤١١هـ -١٩٩٠م(٢/٥١١، ٥١٢)، وجامع البيان(٢١/٥٥١، ٥٥٢)، والبحر(١٠/١٧٣، ١٧٤).

(٤) معاني القرآن للفراء(٢/١٤٠، ٢١٨).

وذهب الزمخشري وجمهرة من العلماء إلى أن دخول " إنّ " على كل واحد من جزأي الجملة لزيادة التوكيد، وإنما حسن ذلك لطول الكلام والفصل(١).

ونحوه قول جرير:

إنَّ الخَليفةَ إنّ اللهَ سَرْبلهُ ... سِرْبَالَ مُلْكٍ بِهَا تُرْجَى الخواتيمُ(٢)

وكما هددهم الله تعالى بالموت، توعدهم بما بعده من الرد إليه للحساب والجزاء، فقال تعالى ذكره:﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، منبهًا على هول الحبس في البرزخ وعلى طوله بأداة التراخي " ثم "، وبالبناء للمفعول على القهر منه سبحانه والصغار منهم وأنه عنده في غاية السهولة(٣).

ووصف ذاته سبحانه بكونه عالم الغيب والشهادة؛ باعتبار أحوالهم الباطنة وأعمالهم الظاهرة، ما أشهدوا الخلق من التوراة والإنجيل، وما غيبوا من نعت محمد ﷺ وما أسروا في أنفسهم من تكذيبهم رسالته(٤).

وفيه دلالة على إحاطته تعالى بجميع أعمالهم ـ سرها وعلنها ـ لا يعزب عنه شيء منها، وهو مجازيهم عليها.. وكل ذلك تخويف لهم وزجر.

والإنباء بما كانوا يعملون كناية عن الحساب عليه والجزاء، وهو تعريض بالوعيد(٥)؛ لأن ذكر المجازاة في مقام الإجرام والجناية دليل الوعيد والتهديد.

---

(١) الكشاف(١٨٤/٣)، والمحرر الوجيز(١١٢/٤)، والرازي(٤٦٠/٢١)، والبحر(٤٩٣/٧، ٤٩٤) والدر المصون(٢٤٣/٨، ٢٤٤).

(٢) ديوان جرير، ط: دار بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م(ص٤٣١)، [وروايته: يكفي الخليفة أن الله سربله.. ولا شاهد فيه على ذلك].

(٣) ينظر: نظم الدرر(٦١/٢٠).

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب(٥٤١/٣٠) ، وروح البيان(٥٢٠/٩).

(٥) ينظر: التحرير والتنوير(٢١٩/٢٨).

ولذلك جعله ابن عطية إنباء عقاب وعذاب[١]، وأيده الرازي بأنه الوعيد البليغ والتهديد الشديد[٢].

والتهديد والتوعد دليل الميل والخروج عن منهج التزكية والتردي في الضلال، كما هو شأن اليهود.

(١) ينظر: المحرر الوجيز(٣٠٨/٥).

(٢) مفاتيح الغيب(٥٤١/٣٠) ، والخازن(٨٨/٧).

المبحث الثالث

أثرُ المعنى الأمّ في خطاب التَّرقّي والسُّمو

قد بان أن مقصودَ السورة هو تزكية النفس، وكان المؤمنون في حاجة دائمة إلى هذه التزكية؛ لتسمو نفوسهم وتطمئن قلوبهم بذكر الله، وهذا لا يكون إلا بمداومة الإقبال عليه تعالى، والاقتداء بهدي رسوله المبعوث بالتزكية . وقد أعلمهم الله تعالى بحال اليهود، " تلك الطائفة التي لاح لها نور الهدى، ووضح لها سبيل الحق فعميت عن ذلك وارتبكت في ظلمات جهلها، ولم تزدد بما حملت إلا حيرة وضلالة. وهي في معرض التنبيه لمن تقدم الثناء عليه ورحمة الله إياه لئلا يكونوا فيما يتلو عليهم نبيهم من الآيات، ويعلمهم من الكتاب والحكمة مثل أولئك الممتحَنين، فإنهم مُقتوا ولُعنوا بعد حملهم التوراة، وزعموا أنهم التزموا حمله والوفاء به، فوعظ هؤلاء بمثالبهم لطفا من الله بهذه الأمة ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[البقرة:٢٦٩] (١).

ولذا؛ فقد خاطب الله المؤمنين –على طريقة الاستنتاج مما مضى من الترغيب والترهيب– بما يرغبهم في السعي إلى الإقبال عليه وحسن الامتثال بين يديه، وهو سبيل التزكية، فقال عز وجل:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الجمعة:٩]، فجاء الأمر بالسعي إلى ما يزكي النفس محفوفا بدقائق اللفظ وجلائل المعنى.

---

(١) ينظر: البرهان في تناسب سور القرآن، لابن الزبير الغرناطي، ت: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٤١٠هـ–١٩٩٠م(ص٣٣٦).

ومن تلك الدقائق المعربة عن السمو: صيغة " يا أيها الذين آمنوا "، فإنها خطاب مدح[١] مشعر بتفضيلهم، وهي من أكثر نداءات القرآن[٢]؛ بعثا لنفوس أهل الإيمان وتحريكا لقلوبهم إلى مراد الله منهم وتلقي ذلك بغاية الامتثال.

فإن النداء عليهم بعقد الإيمان ورباطه في مقام التكليف أوقع أثرا على قلوبهم، ربطا للعقيدة الراسخة بما يزيدها رسوخا وثباتا من العمل، جمعا بين عمل الجنان وسعي الأركان.

وفيه من التشريف المتوشح بتأكيد لزومه ما فيه؛ لأنه اختصهم بالخطاب ووصفهم بالإيمان، وهو ما قرره القرطبي بقوله:" خاطب الله المؤمنين بالجمعة دون الكافرين تشريفا لهم وتكريما فقال:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم خصه بالنداء؛ ليدل على وجوبه وتأكيد فرضه "[٣].

وفي الإقبال عليهم بالخطاب دون واسطة تكريم لهم أيضا؛ وذلك أنهم أخلصوا إيمانهم لله تعالى بتوحيده ونبذ ما دونه من الشركاء، فخصهم بتلك المزية، " فإنه تعالى خاطبهم في أغلب المواضع بلا واسطة لأنهم أسقطوا الوسائط فأسقط الله بينه وبينهم الواسطات"[٤].

---

(١) ينظر: البرهان(٢/٢٢٨)، والإتقان(٣/١١٠).

(٢) ذكر الزمخشري أنه كثر النداء في القرآن بـ" يا أيها " دون غيره لاستقلاله بأوجه من التأكيد:(منها ما في "يا" من التأكيد والتنبيه، وما في "ها" من التنبيه، وما في التدرج من الإبهام في "أي" إلى التوضيح) لأن كل ما نادى اللَّه له عباده من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره ووعده ووعيده، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم، وغير ذلك مما أنطق به كتابه؛ أمور عظام، وخطوب جسام، ومعان عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون. فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ.[الكشاف(١/٩٠،٨٩)، وينظر: أنوار التنزيل(١/٥٤)، والإتقان(٣/٢٨٣)].

(٣) الجامع لأحكام القرآن(١٨/١٠٠).

(٤) روح البيان(٩/٥١٨).

كما أن النداء على هذه الطريقة فيه فضل تنبيه على أهمية ما يليه، وتهيئة النفوس لحسن تلقيه. وفي الكشاف إنه للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معني به جدا[١]، وهذا تأكيد للاعتناء بأمر هذه الصلاة وزيادة الحث عليها والترغيب فيها والمبادرة إليها وترك ما دونها، لما لها من المنزلة العالية في رفع الدرجات وتزكية النفس وتطهيرها من السيئات.

فإن قلت: الصلوات الخمس تشترك في هذا الفضل، فما معنى اختصاص الجمعة بذلك؟ قلت: لا مانع من أن يكون لكل فريضة منزلة من المنازل يَشرَكها فيها غيرُها من بعض الوجوه، إلا أن ثم خصوصيةً لكل فريضة تنفرد بها عن سواها، فللجمعة من الفضل ما يعدل فضل الصلوات الخمس مثلا، ولها من الأحكام واللوازم ما ليس لغيرها، كالاغتسال والتطيب والتبكير إليها والاجتماع عليها والخطبة ونحو ذلك- ولكل ذلك ثوابه وأجره -، وفيها اعتراف بنعمة الله على خلقه، ولذا اختصت بتلك المنزلة، فشرعت في يوم مخصوص بها.

قال القفال: لما جعل الله الناس أشرف العالم السفلي لعجيب تركيبهم، لم يُخْفِ عظمَ المنة وجلالةَ قدر الموهبة لهم، فأمرهم بالشكر على هذه الكرامة في يوم من الأيام السبعة، ليكون في اجتماعهم في ذلك اليوم تنبيه على عظم ما أنعم الله به عليهم.. فجعل الجمعة يوم شكر وتعظيم نعمة فاحتيج إلى الاجتماع الذي تقع به شهرته فجمعت الجماعات لذلك، واحتيج فيه إلى الخطبة تذكيرا بالنعمة وحثا على استدامتها. وكان مدار التعظيم على الصلاة فجعلت لهذا اليوم وسط النهار ليتم الاجتماع[٢].

---

(١) الكشاف(٨٩/١).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب(٥٤٣/٣٠)، والتحرير والتنوير(٢٢٢/٢٨).

وقد فصلت هذه الآيات عما قبلها لاختلاف الغرضين، فإن هذه في مدح المؤمنين والثناء عليهم في مقام تكليفهم بما يصلحهم ويزكيهم في دينهم ودنياهم، وتلك في ذم اليهود والنعي عليهم في تفريطهم في كتابهم ومخالفة أقوالهم لأفعالهم، وذكر مثالبهم..

وأضاف ابن عاشور أن الكلام المفتتح بالنداء والتنبيه ونحوه، لا يناسب عطفُه على ما قبلَه وينبغي أن يعتبر افتتاح كلام(١).

فهو إذًا استئناف ابتدائي لبيان حكم شرعي، ولذا افتتح بـ " يا أيها الذين آمنوا "؛ لأنهم كانوا حديثي عهد به، ومن ثم احتيج إلى مزيد تنبيه.

وجاء الربط بين الأمر بالسعي إلى ذكر الله، والنداء للصلاة بأسلوب الشرط:﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾، تعليقا للسعي بهذا النداء؛ ليكون المؤمن على تيقظ وترقب وحرص على أداء هذه الشعيرة العظيمة في الوقت المخصص لها، وأنه كلما حان وقتها وجب السعي لأدائها.

ونبه سبحانه بـ " مِنْ " التبعيضي المبينة لمدلول " إذا " الظرفية(٢)، على أن أداء هذه الفريضة لا يستغرق اليوم بل هو جزء منه، وهو ما يستلزم الاهتمام بأمرها والترغيب في الابتكار إليها.

واصطفى البيان التعبير بالسعي، وأصله الاشتدادُ في المشي؛ للدلالة على ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن فيما أمر الله تعالى، من علو همة وفرط نشاط، قصدا إلى ذكره تعالى وتعظيمه لينال فضله العظيم.

---

(١) التحرير والتنوير(١/٦٥١).

(٢) ينظر: الكشاف(٤/٥٣٢)، وأنوار التنزيل(٥/٢١٢)، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري، ت:الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى١٤١٦هـ(٦/٢٠٠)، وروح البيان(٩/٥٢٢)، والتحرير والتنوير(٢٨/٢٢٦، ٢٢٧).

فالمراد بالسعي كما ذهب الأئمة: القصد دون العدو، والمبادرة بالنية والجد لا الإسراع في المشي، أو هو إخلاص النية والعمل، أي فاعملوا على المضي إلى ذكر الله من التفرغ له، والاشتغال بأسبابه من الطهارة والغسل والتوجه إليه بالقصد والنية(١).

ولعله يعرب أيضا عن النهي عن التثاقل والحث على الذهاب بصفاء قلب وهمة لا بكسل نفس وغمة(٢).

وإيثار " ذكر الله " دون " الصلاة "، كما قال: " فإذا قضيت الصلاة "؛ لتتأتى إرادة الأمرين: الخطبة والصلاة(٣)، فسماها ذكرا وأضافه إليه تعالى؛ تنويها بشأنها، وتنبيها على فضلها وفضل الساعي إليها؛ لأنه ذاكر لربه، فإنها بما تشتمل عليه من الموعظة والذكر والثناء علي الله تعالى، ثم الخضوع بين يديه بفعل الصلاة، أجدر في تزكية النفس وسموها وترقيها.

ومن قرائن السمو وأسبابه أيضا: صرف الهمة إلى الله تعالى والإقبال على ذكره وشكره من خلال هذه العبادة المخصوصة؛ وترك ما دونها من عرض الدنيا وقت أدائها؛ فنبههم إلى ذلك، قارنا بين الفعل والترك – وعليهما مدار الشرع – فقال: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ وذلك في وجازة بالغة؛ جمعا لمراد الشارع من المؤمنين بما ينفعهم ويزكيهم دينا ودنيا.

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء(٣/١٥٦)، وغريب القرآن(ص٤٦٥)، وجامع البيان(٢٣/٣٨٠، ٣٨١)، وأحكام القرآن للجصاص(٥/٣٣٧)، والتفسير البسيط(٢١/٤٥٤- ٤٥٦)، والكشاف(٤/٥٣٤، ٥٣٥).

(٢) روح البيان(٩/٥٢٣، ٥٢٤).

(٣) التحرير والتنوير(٢٨ / ٢٢٥، ٢٢٦).

ونبه بالبيع على سائر المعاملة؛ لأنه أصلها وأُسّها، فيدخل فيه الشراء ونحوه، لأنّ البيع يتناول المعنيين معا، فالأمر بترك البيع أمر بترك الشراء، كما ذهب الفراء[1]، فالمراد ترك كل ما يشغل عن ذكر الله. قال الجصاص: خص البيع بالنهي لأنه كان أعظم ما يبتغون من منافعهم ومعايشهم، والمراد جميع ما يشغل عن الصلاة، وإنما نص عليه؛ تأكيدا للنهي عن الاشتغال عن الصلاة، فإذا نهوا عما هم إليه أحوج عُقل منه أن ما دونه أولى بالنهي[2].

وأوضح صاحب الكشاف أنه إنما خص البيع؛ لأن يوم الجمعة يتكاثر فيه البيع والشراء عند الزوال، فلما كان ذلك الوقت مظنة الذهول بالبيع عن ذكر الله والمضي إلى المسجد؛ قيل لهم: بادروا تجارة الآخرة، واتركوا تجارة الدنيا، واسعوا إلى ذكر الله الذي لا شيء أنفع منه وأربح، وذروا البيع الذي نفعه يسير وربحه مقارب[3].

ولعلو ذلك وعظيم فضله في تزكية النفس؛ لأنها تتعلق بأمر الدنيا؛ أشار إليه بصيغة البعيد، ترغيبا فيه، فقال:﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، أي " سعيكم إلى ذكر الله، وترك البيع خير لكم من البيع والشراء في ذلك الوقت، فإن نفع الآخرة أجل وأبقى"[4].

قال البقاعي: ولما أمرهم بما هو شاق على النفوس، رغب فيه بقوله: " ذلكم " أي الأمر العالي الرتبة من فعل السعي، وترك الاشتغال بالدنيا خير لكم؛ لأن الذي أمَرَكم

---

(١) ينظر: معاني القرآن(١٥٧/٣)، والكشف البيان(٣١١/٩)، والتفسير البسيط(٤٥٧/٢١، ٤٥٨).

(٢) ينظر: أحكام القرآن(١٥٣/١، ٣٥٢/٢، ٢٦٠/٤).

(٣) ينظر: الكشاف(٥٣٥/٤، ٥٣٦)، والبحر(١٧٥/١٠)، وشيخ زاده(٤٠٠/٤)، وروح البيان(٥٢٤/٩).

(٤) ينظر: جامع البيان(٣٨٤/٢٣)، وأنوار التنزيل(٥/ ٢١٢)، والإرشاد(٢٤٩/٨)، وروح البيان(٥٢٤/٩).

به له الأمر كله، وهو يريد تطهيرَكم في أديانكم وأبدانكم وأموالكم وبيده إسعادكم وأشقاؤكم(١).

ثم زاد في الحث على الامتثال للأمر بقوله:﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وهو متأول بوجوه: فإما أن يكون المعنى إن كنتم تعلمون فامتثلوا، على حذف الجواب، فيفيد الإلزام بالمفهوم، على غرار قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[المائدة: ٩١]، في سياق تحريم الخمر، فلفظه استفهام ومعناه أمر.

وإنما جاز في صيغة الشرط أن يكون على معنى الإلزام بالامتثال، بدلالة السياق؛ لأن الله تعالى أمر بالسعي إلى ذكره عند النداء بهذه الصلاة، ونهى عن التلبس بما يشغل عنها، ونص على الخيرية لمن قام بذلك؛ فاستلزم المضرة لمن أتى بخلافه، ثم ذيل بالشرط مرتبا على ما سبق﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فاكتسب معنى الإلزام بوجه أبلغ؛ إذ قد بيّن لهم المنافع والمضار، فإذا علموا ذلك لابد أن يمتثلوا.

وإما أن المعنى: إن كنتم تعلمون مصالح أنفسكم ومضارها، أو ما هو خير لكم وأصلح(٢)، بحذف متعلق العلم وهو المفعول؛ وذلك على وجه الترغيب.

أو إن كنتم من أهل العلم على تنزيل الفعل منزلة اللازم(٣)، قصدا إلى إثباته في نفسه من غير اعتبار تعلقه بما يقع عليه، فيفيد الإلهاب والتهييج، وفيه من زيادة الحث على الامتثال ما فيه.

---

(١) نظم الدرر(٢٠/ ٦٦).

(٢) جامع البيان(٢٣/٣٨٤)، والكشف والبيان(٩/٣١٢)، والتفسير البسيط(٢١/ ٤٥٨)، ومفاتيح الغيب(٣٠/٥٤٢).

(٣) أنوار التنزيل(٥/٢١٢)، وحاشية ابن التمجيد(١٩/٩٠)، وروح المعاني(٢٨/١٠٣).

ومن عناصر خطاب السمو: أنه تعالى لما أمر المؤمنين بالسعي إلى الجمعة، وحظَر البيع وما في معناه، أعقبه بالإطلاق بعد الصلاة بقوله:﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الجمعة:١٠]؛ فضلا منه ونعمة، أو كما ذكر الفراء أن الأمر هنا ليس بفريضة، إنما هو أدب ورحمة من الله تبارك وتعالى وإذن[١]. فهو أمر إباحة وتخيير؛ لأنه إطلاق من حظر، كقوله تعالى:﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾[المائدة:٢]، ولأن إباحة الانتشار زائلة بفرضية أداء الصلاة، فإذا زال ذلك عادت الإباحة، فيباح لهم أن ينتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجهم وأرزاقهم [٢]. وكون صيغة الأمر للوجوب أو الندب أو الإباحة أو للقدر المشترك بينها؛ مسألة خلافية تفصيلها في كتب الأصول[٣].

---

(١) معاني القرآن(١/١٨٣).

(٢) ينظر: الطبري(٤/٣٨٥، ١٩/١٦٧، ٢٣/٣٣٥)، وأحكام القرآن للجصاص(٣/٢٩٥، ٥/٣٤٣)، والتفسير البسيط(٢١/٤٥٨، ٤٦٨)، وتفسير البغوي(٥/٩٣)، والمحرر الوجيز(٥/٣٠٩)، والرازي(٢٠/٥٤٢)، والقرطبي(١٨/١٠٨).

(٣) يراجع ذلك في: اللمع في أصول الفقه للشيرازي، دار الكتب العلمية، ط: الثانية، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م(ص ١٢-١٤)، والبرهان في أصول الفقه لإمام الحرمين الجويني، ت: صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى١٤١٨هـ-١٩٩٧م(١/٨٧، ٨٨)، وأصول السرخسي، دار المعرفة، بيروت(١/١٩)، والإحكام في أصول الأحكام للآمدي، ت: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي بيروت(٢/١٧٨)، والإبهاج في شرح المنهاج، تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي، وولده تاج الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م(٢/٤٣- ٤٦)، وشروح التلخيص للسعد التفتازاني وآخرين، ط: دار السرور، بيروت(٢/٣١٠، ٣١١)، والشهاب على البيضاوي(٨/١٩٦، ١٩٧).

وإنما جاء الانتشار في طلب الرزق على لفظ الأمر وهو إباحة؛ للحث عليه والترغيب فيه كأنه مطلوب، فكما رغبهم الله تعالى في طاعته تزكيةً لنفوسهم؛ أذن لهم بالتصرف فيما يحتاجون إليه من أمر معاشهم رفقا بهم، فإن المؤمن لا يُمنع من اجتناء ثمار الدنيا وطيباتها مع السعي لما ينفعه في الآخرة. وهذا مع ما فيه من إظهار الفضل والكرامة للمؤمنين، فيه إلماح إلى النعي على اليهود لتعلقهم بالدنيا وفرارهم من الآخرة.

ولفت الطاهر إلى أن التعقيب بهذه الآية بعد الأمر بالسعي إلى ذكر الله، وترك ما يشغل عنه؛ للتنبيه على أن لهم سعة من النهار يجعلونها للبيع ونحوه من ابتغاء أسباب المعاش، فلا يأخذوا ذلك من وقت الصلاة وذكر الله(١).

وهذا ما يتسم به المنهج الإسلامي في التوازن بين مقتضيات الحياة في الأرض، من عمل وكد ونشاط وكسب، وبين عزلة الروح فترة عن هذا الجو وانقطاع القلب وتجرده للذكر(٢).

والابتغاء من فضل الله على ما قيل هو الرزق من البيع والشراء ونحوه، وقيل: طلب العلم. وقيل: صلاة التطوع. وقيل غير ذلك، وعن ابن عباس: لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا، إنما هو عيادة المرضى وحضور الجنائز وزيارة الأخ في الله. ورُجح الأول لأن إباحة ما منع هو البيع الذي حظر بديا(٣).

قلت: والجمع بين ذلك وغيره من سائر الطاعات والمباحات أعلى وأكمل.

---

(١) التحرير والتنوير(٢٢٧/٢٨).

(٢) في ظلال القرآن(٣٥٧٠/٦).

(٣) ينظر: الطبري(٣٨٥/٢٣)، والجصاص(٣٤٣/٥)، والكشف والبيان(٢١٧/٩، ٢١٦)، والتفسير البسيط(٤٥٨/٢١، ٤٨٦) والكشاف(٥٣٦/٤) والرازي(٥٤٢/٣٠، ٥٤٣) والقرطبي(١٠٨/١٨، ١٠٩).

وفي التعبير بالابتغاء من فضل الله عن طلب الرزق ونحوِه، إشارةٌ إلى أنه سبحانه المتفضل بالنعم المتكفلُ بالرزق، فلا ينبغي الاشتغال عن ذكره بطلب الدنيا، ولذا كرر الأمر بذكره فقال:﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أي: " واذكروه بالحمد له والشكر على ما هداكم إليه من الخير الأخروي والدنيوي، واذكروه أيضا بما يقربكم إليه من الأذكار؛ كالحمد، والتسبيح، والتكبير، والاستغفار ونحو ذلك، ولا تقصروا ذكره على الصلاة "[1]؛ ترقيا في السمو.

فالذكر هنا يشمل الذكر بالطاعة واللسان[2]، والفرق بينه وبين ذكر الله في الأول؛ أن الأول من جملة ما لا يجتمع مع التجارة أصلا؛ إذ المراد منه الخطبة والصلاة كما مر، والثاني ما يجتمع كما في قوله تعالى:﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[النور: ٣٧] [3].

وهذه الجملة احتراس من الانصباب في أشغال الدنيا انصبابا ينسي ذكر الله، أو يشغل عن الصلوات، فإن الفلاح في الإقبال على مرضاة الله تعالى[4].

ولذا قُيد المتعلق ـ وهو المفعول المطلق، أو الظرف، أي: ذكرا كثيرا، أو زمانا كثيرا ـ بالوصف، للإشارة إلى عدم الغفلة عن ذكر الله في كل حال.

قال البقاعي: ولأن الإنسان مجبول على النسيان، وقد يشغله طلب الرزق عن الذكر، فنبهه على ذلك بذكر الوصف[5].

---

(١) ينظر: جامع البيان(٢٣/٣٨٥، ٣٨٦)، والقرطبي(١٨/١٠٩)، وفتح القدير(٥/٢٧١).
(٢) التفسير البسيط(٢١/٤٥٩)، والرازي(٣٠/٥٤٣)، والقرطبي(١٨/١٠٩).
(٣) مفاتيح الغيب(٣٠/٥٣٣، ٤٣٤).
(٤) التحرير والتنوير(٢٨/٢٢٧).
(٥) ينظر: نظم الدرر(٢٠/٦٧، ٦٨).

ثم علل تعالى الأمر بذكره بالفلاح، وهو غاية ما يطلبه المؤمن من تزكية نفسه في كل حال، فقال:﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي كي تفوزوا بخير الدارين[١]. أو راجين الفلاح، بأن تكونوا على رجاء من أن تظفروا بجميع مطلوباتكم، فإن الأمور كلها بيد من تكثرون ذكره[٢].

ولعلك ترى هذا الترقي في خطاب السمو مع المؤمنين، حيث ابتدأت الآيات بالتهيئة للمعنى بالنداء والوصف، ثم الأمر بالسعي إلى ما ينفع المؤمن في دنياه وأخراه، ثم التنبيه بترك ما يشغل عن تزكية النفس من عرض الدنيا؛ بالإقبال على الملك القدوس، فإن ما عند الله خير وأبقى، ثم الوصف بالخيرية لمن أقبل على طاعة الله، ثم المداومة على ذكره تعالى في جميع الأحوال، وبذا يترقى المؤمن في الطاعة حتى يتحقق له الفلاح.. نسأل الله أن نكون من المفلحين.

---

(١) إرشاد العقل السليم(٨/٢٥٠)، وروح البيان(٩/٥٢٥)، وروح المعاني(٢٨/١٠٤).

(٢) ينظر: المفردات(ص٧٤٢)، والبرهان للزركشي(٤/٣٩٣)، ونظم الدرر(٢٠/٦٨).

الخاتمة

الحمد لله الذي أفاض علينا من إشراقات أنوار كلامه ما فتح لنا المغاليق، ومن فتوحات بيانه ما هيأ لنا الطريق، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث بالهدى ودين الحق، تزكية وتطهيرا ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾[الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، صلى الله عليك وعلى آلك وصحبك وسلم تسليما كثيرا .. وبعد،،

فقد عشت مع كتاب الله تعالى وتفيأت ظلاله في رحاب سورة الجمعة، مقتطفا بعض ثمارها وأسرارها مما فتح الله تعالى به، حول بيان مقصدها ومعناها الأم، والتفاف السورة عليه وتنوع أسلوب الخطاب فيها.. وقد أثمرت هذه الدراسة عن بعض النتائج أجملها فيما يأتي:

١- دلل البحث على جذور مصطلح " المعنى الأم " في تراث علمائنا.

٢- رسم البحث منهجية واضحة المعالم في استكشاف أمهات المعاني في سور القرآن العظيم، وبيان الصلة بينها، وبين ما ورد في سورها من معان مشابكة لها.

٣- أهم معلم من معالم إداك المعنى الأم والغرض الأساس الذي قامت السورة عليه؛ هو جملة المطلع، حيث تتردد دلالته في نسق السورة وتركيبها، وإن خفي ذلك أو دق، ثم تأتي بقية المعالم تباعا.

٤- مفردات السورة ، وصيغ أفعالها، ولا سيما الواردة في المطلع لها دور بارز في إداك المعنى الأم، وفي ائتلاف النظم عليه.

٥- كشف البحث عن القيمة البلاغية لخصائص البيان، ودورها في تبيان العلاقات والوشائج بين أصل المعنى وما يتفرع عنه.

٦- معرفة سبب النزول والوقوف عليه مما يعين على إدراك مقصد السورة، وتنوع الخطاب فيها.

٧- تنوُّعُ الخطاب في السورة بين السمو والسقوط راجع إلى تحقق مقصودها من عدمه.

٨- اتسم خطاب السمو للمؤمنين في مقام التكليف، وفي مقام المعاتبة بالرفق والرحمة؛ وذلك لإيمانهم بالله واتباع رسوله ﷺ ، بينما اتصف خطاب السقوط لليهود بالشدة والقوة والتحدي؛ لانفلاتهم من التكليف، واعوجاج طبائعهم بتعمدهم العكوف في الضلال.

٩- تقليب الفكر وإمعان النظر في بناء السورة الكلي، وفي بداية كل مقطع، يقود إلى معرفة المعنى الأم ويدل عليه.

١٠- أظهر البحث أن تعدد الأغراض والموضوعات في السورة، له صلة أكيدة ووشيجة قريبة بمقصودها الأول، فهي متفرعة عنه ومتشابكة معه لتحقيق الغاية العظمي منها.

وغير ذلك مما زخر به البحث من اللطائف والأسرار التي تعد في حد ذاتها نتائج لو أبصرها المتأمل.

ومن أهم توصيات البحث:

١- تعميم هذه الفكرة بتطبيقها على سور القرآن الكريم؛ لما لها من الأهمية في فقه البيان القرآني، ومعرفة منازل المعاني واتصالها، وبيان أصولها وفروعها، وكيفية تفرع المعاني الجزئية من المعنى الأم، وإدراك الصلات والروابط بين تلك المعاني؛ لأن هذا يعد وجها من وجوه الإعجاز، ويكشف عن معان جديدة فيه.

٢-تطبيق هذه الفكرة في شعر الشعراء الكبار؛ لأن في ذلك تبصُّرا بطرق بناء قصائده، والوقوف على كثير من دقائقه وأسراره وخفاياه، بما يعد مدخلا لدراستها وحسن تطبيقها في التنزيل العزيز.

والحمد لله في الأولى والآخرة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثبت المصادر والمراجع

١- الإبهاج في شرح المنهاج، تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي، وولده تاج الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.

٢- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

٣- أحكام القرآن لأبي بكر الجصاص، ت: محمد صادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٤- الإحكام في أصول الأحكام للآمدي، ت: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي بيروت.

٥- أساليب البيان والصورة القرآنية، د محمد إبراهيم شادي، دار والي الإسلامية، المنصورة، ط: الأولى، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

٦- أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، لمحمود بن حمزة الكرماني، ت: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة.

٧- أصول السرخسي، دار المعرفة، بيروت.

٨- آل حم غافر . فصلت دراسة في أسرار البيان، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط: الأولى، ١٤٠٩هـ- ٢٠٠٩م.

٩- أنساب المعاني وفقه روابطها في الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، د. أبو الفتوح عبد الوهاب غياتي، منشور بمجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية،(العدد٣٧) ديسمبر ٢٠٢٢م.

١٠- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للقاضي البيضاوي، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٨هـ.

١١- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر، ط: ١٤٢٠هـ.

١٢- البرهان في أصول الفقه لإمام الحرمين الجويني، ت: صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

١٣- البرهان في تناسب سور القرآن، لابن الزبير الغرناطي، ت: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

١٤- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ط: الأولى، ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م.

١٥- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، ت: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة.

١٦- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات القرآنية، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط: الثانية، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

١٧- بلاغة المناسبة في اقتران أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم، د. حسين إبراهيم إمام، دكتوراه . مخطوطة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا، ١٤٣٠هـ- ٢٠١٠م.

١٨- التبيان في إعراب القرآن، للعكبري، ت: علي محمد البجاوي، نشر: عيسى البابي الحلبي.

١٩- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

٢٠- التدمرية، لابن تيمية، ت: د. محمد بن عودة السعوي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط: السادسة ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٢١- تفسير أبي السعود(إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، لأبي السعود

العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٢- التفسير البسيط للواحدي النيسابوري، نشر: عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط: الأولى،١٤٣٠هـ.

٢٣- تفسير البغوي(معالم التنزيل) لمحي السنة، محمد بن مسعود البغوي، ت: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولى،١٤٢٠هـ.

٢٤- تفسير التستري، للإمام سهل بن عبد الله التستري، ت: محمد باسل عيون السود، نشر: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى،١٤٢٣هـ.

٢٥- تفسير الخازن(لباب التأويل في معاني التنزيل) علاء الدين علي بن محمد البغدادي، الشهير بالخازن، دار الفكر، بيروت،١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٢٦- تفسير القاسمي (محاسن التأويل) للإمام محمد جمال الدين القاسمي، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٨ هـ.

٢٧- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ت: محمود حسن، دار الفكر، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٢٨- تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، دار النهضة الحديثة.

٢٩- تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، ت: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولى، ٢٠٠١م.

٣٠- جامع البيان في تأويل القرآن، للإمام الطبري، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٣١- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ت: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط: الثانية،١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.

٣٢- حاشية ابن التمجيد على تفسير البيضاوي، مصطفى بن إبراهيم الرومي الحنفي، ت: عبد الله محمود عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى،١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

٣٣- حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، دار صادر، بيروت.

٣٤- حاشية شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي، مكتبة الحقيقة استانبول، تركيا،١٤١١هـ-١٩٩١م.

٣٥- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، مكتبة وهبة، ط: الأولى، ١٤١٣ هـ-١٩٩٢م.

٣٦- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، ت: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

٣٧- درة التنزيل وغرة التأويل، للخطيب الإسكافي، ت: د. محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط: الأولى١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٣٨- دلائل الإعجاز، الإمام عبد القاهر الجرجاني، ت: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة، ط: ثالثة ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

٣٩- ديوان جرير، ط: دار بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٤٠- ديوان ذي الرمة، شرح أبي نصر الباهلي، ت: عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان جدة، ط: الأولى، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

٤١- روح البيان لإسماعيل حقي البروسوي، دار الفكر، بيروت.

٤٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٣- زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن الجوزي، ت: عبد الرزاق

المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٤٤- شرح المفصل للزمخشري، لابن يعيش، ت: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٤٥- شروح التلخيص للسعد التفتازاني وآخرين، ط: دار السرور، بيروت.

٤٦- صحيح البخاري(الجامع المسند الصحيح المختصر) للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ت: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط: الثالثة، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

٤٧- صحيح مسلم(المسند الصحيح المختصر)، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٨- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٣هـ.

٤٩- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن قيم الجوزية، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط: الثالثة، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.

٥٠- علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم، دراسة بلاغية، نظرية - تطبيقية د. إبراهيم صلاح الهدهد، مكتبة وهبة ط: الثانية، ١٤٤٠هـ- ٢٠١٩م.

٥١- غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري، ت:الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى١٤١٦هـ.

٥٢- غريب القرآن، لابن قتيبة، ت: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

٥٣- فتح القدير، لمحمد بن علي الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٤هـ.

٥٤- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط: السابعة عشرة، ١٤١٢هـ.

٥٥- الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس المبرد، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط: الثالثة،١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

٥٦- كتاب الصفدية، لابن تيمية، ت: محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، مصر، ط: الثانية، ١٤٠٦هـ.

٥٧- كتاب العين، للخليل بن أحمد، ت: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٥٨- كتاب سيبويه، ت: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: الثالثة، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

٥٩- كشف المعاني في المتشابه من المثاني، بدر الدين بن جماعة، ت: د. عبد الجواد خلف، دار الوفاء، المنصورة، ط: الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٦٠- الكشف والبيان للثعلبي، ت: أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط:الأولى،١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

٦١- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط: الثالثة، ١٤١٤هـ.

٦٢- اللمع في أصول الفقه للشيرازي، دار الكتب العلمية، ط: الثانية، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م

٦٣- المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية، دكتوراه، للباحث: صالح بن عبد الله الشثري، إشراف: أ. د/ محمد أبو موسى، كلية اللغة العربية، جامعة

أم القرى،١٤١٢هـ-٢٠٠١م.

٦٤- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى،١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٦٥- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، للإمام إبراهيم بن عمر البقاعي، مكتبة المعارف، الرياض، ط: الأولى ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٧م.

٦٦- معاني القرآن للفراء، ت: أحمد يوسف النجاتي، وآخرَيْن، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط: الأولى.

٦٧- معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، ت: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

٦٨- مفاتيح الغيب، للفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة: الثالثة ١٤٢٠ هـ.

٦٩- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ت: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط: الأولى،١٤١٢هـ.

٧٠- مقاييس اللغة، ابن فارس، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٧١- المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، لحجة الإسلام الغزالي، ت: بسام عبد الوهاب الجابي، نشر: الجفان والجابي- قبرص، ط: الأولى، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

٧٢- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، لابن الزبير الغرناطي، ت: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٧٣- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط: الثالثة.

٧٤- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، ت محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط: الثالثة، ١٩٨٦م.

٧٥- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٧٦- النكت والعيون، لأبي الحسن الماوردي، ت: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٧٧- نمطٌ صعب ونمطٌ مخيف، محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، مطبعة المدني بمصر، ط: الأولى، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

٧٨- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحدي النيسابوري، ت: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحـــة
المقدمـة	٢٧٥١
التمهيـد	٢٧٥٦
أولا: ضبطُ المصطلحِ وتحريرُه	٢٧٥٦
ثانيا: كيفية معرفة المعنى الأم	٢٧٦١
المبحث الأول: المعنى الأم ومستلزماته في سورة الجمعة	٢٧٦٥
المبحث الثاني: أثر المعنى الأم في خطاب التسفل والسقوط	٢٧٨٢
المبحث الثالث: أثر المعنى الأم في خطاب الترقي والسمو	٢٨٠٠
الخاتمـة	٢٨١١
المصادر والمراجع	٢٨١٣
فهرس الموضوعات	٢٨٢١